كان اسمها فرح

www.ebibliomania.com

201065534541
201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
بيلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
Books ـ بيلومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@Bibliom

كان اسمها فرح

مجموعة قصصية

فادية حسين المقدح

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: مجموعة قصصية

اسم العمل: كان اسمها فرح

اسم المؤلف: فادية حسين المقدح

تدقيق وتنقيح/ ديانا حمزة

تصميم الغلاف: فريق تصميم ببلومانيا للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 2017/ 26766

الترقيم الدولي (ISBN) : 978 - 977 – 6607 -19- 9

الناشر / دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون / 00201065534541- 00201208868826

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

الطبعة الأولى 1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع

محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ

أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

كلمة الناشر

في هذه المجموعة القصصية– كان اسمها فرح- أيها الكرام لمساتٌ اقتطفتها فادية المقدح من أوجاع واقع مضطرب هي نتيجة غربة مدتها سبع عشرة سنة قضتها غريبة الروح والجسد فكانت الكتابة متنفسها وهي موهبة منحها الله لها منذ الصغر، هي مجموعة قصصية سلسة، سهلة التعابير كتبتها بكل عفوية وصدق ونتمنى أن تلامس كلماتها قلوبكم وارواحكم.

والله الموفق،،

ببلومانيا للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى المحبطين والتائهين في فوضى المشاعر ورغم ذلك مازالوا يبتسمون..

إلى المشتّتين اللاجئين المغتربين الباحثين عن بقايا أوطانهم ورغم ذلك ما زالوا يحلمون بالعودة..

إلى العاشقين والمغرمين بأرواح بعيدة لن تكون من نصيبهم ورغم ذلك مازالوا متفائلين..

إلى كل الأمّهات المثابرات في صخب الحياة ورغم ذلك مازلن يغدقن الحب!

إلى أولادي براعمي التي زرعتها على ضفاف قلبي فأزهرت مروجًا خضراء...

إهداء ثان

إليك فقط يا من أيقنت موهبتي الكتابية
ووهبتني الأمل
وقلت { إن الدنيا بخير}،
أنت من جعلني أتشبث بالحلم.
سقيت براعم أمنياتي بالحب
فأزهرت !
هذه المجموعة القصصيّة
إلى عينيك وبريقهما
"عبد الكريم العجرمي"
أهديك عملي هذا...

المقدّمة

عندما تشتدّ رياح اليأس بقلوبنا وتعبث بأرواحنا نحاول التّشبث بما تطاله أيدينا

قد يكون حلم، أمنية، وربما موهبة..

كموهبة الكتابة...

أنسج من الأبجدية عوالم مختلفة، أهرب إليها لعلّها تنقذ ما يمكن إنقاذه..

ما أصدق الكتابة وما أكذب الواقع!

في عالم الأبجدية أتحرّر من قيود الزمن والمكان، أسافر حيث أريد دون جواز سفر أو بطاقة تعريف،

دون أسماء أو ألقاب، مجّردة من كل شيء..

لم تسألني الأبجدية عن جنسيتي، ديانتي، أو لون بشرتي..

كل ما أحتاجه بوح حر...

أُطلق العنان لأفكاري، أدعها تنساب بسلاسة وعفوية ربما تكون خواطر، خربشات، ذكريات، أو أحلام مؤجلة على ناصية الواقع. وربما قصص من الخيال.

كتبت هذه القصص لحظة بوح حر...

هي قصص من الواقع قد تكون حدثت للبعض ولكن بطرق مختلفة.

لم أجدني ما بين رحى الحياة حين طحنتني أضراسها،

فآثرت الاعتكاف في صومعة الأبجدية متدثرة

وشاح السكون...

كان اسمها فرح

تعتريه الأمنيات وتلاحقه تلك الأحلام،

شاردٌ زائغ العقل مشتّت الروح.

يفتح نوافذ الأمل على مصرعيها قابع على شرفة التفاؤل!

لم يعهد نفسه متشائمًا مستسلمًا محبطًا..

"سأتخطّى جميع العقبات واثق من ذلك، أعلم أنها مجرد مرحله لن أهزم سأستمرّ وأنتظر السماء لتمطر فرحًا"

يتقلّب ويتململ، يغمض عينيه ليوهم عقله بأنه نائم، ربما سيتوقف عن التفكير..

ينهض ويجلس على تلك الكنبة يدخن سيجارة بشهية معدمة،

ينظر بأنحاء غرفته يصاب باشمئزاز يصحبه القرف..

"كم تمنيت أن أملك غرفة خاصة بها وسائل الراحة والرفاهية."

غرفة كبيرة يأثث محتوياتها كما يحلو له وليس كما يحلو للظروف!

بها ذاك السرير ذو المرتبة المريحة وغطاء أزرق ورمادي.

يعلّق على جدرانها صور بعض المشاهير وبعضًا من صور لاعبي الملاكمة.

ويستمرّ بتأثيث تلك الغرفة ويضع بإحدى الزّوايا طاولة صغيرة معلق فوقها شاشة تلفاز حديثة تحتل نصف الحائط.

وبزاوية أخرى تلك المكتبة عليها ذلك اللابتوب وطابعة أوراق..

بزاوية أخرى تلك الغرفة الصغيرة والتي ستكون لملابسه وأحذيته واشياءه الخاصة،

يحيط بها مرايا من كل الجهات.

وبجانب تلك الغرفة حمامًا به حوضًا كبيرًا ومغسلة فوقها خزانة صغيرة تحتوي على أدوات الاستحمام

وأسفلها رفًا زجاجيًا عليه عطوراته الغالية الثمن،

وبعضًا من الإكسسوارات الفضية..

ينظر مجددا فتقع عيناه على تلك الستائر بلونها البرتقالي الباهت،

يهزّ برأسه وكأنه يأكد أنه لم ينس نوافذ الغرفة وكيف سيزينها بتلك الستائر الحريرية ذات ألوان الأبيض والأسود وفوقها ستائر شفافه لونها رمادي..

يفصّل الخيال كثوبًا أخضر تزينه زهور البيلسان.

كان لايزال جالسًا يحلم ويتمنى، يتمتم بكلمات عالقة بحلقه ثم ببرود وكسل ينهض عن الكنبة

يرمي بجسده متثاقلا، يسمع صريرًا يذكره بقدم خشب السرير وكأنه يشكو ثقل أوجاعه عليه

يعود لتقلبات الأرق، يضع الوسادة على رأسه علّها تخمد نيران التفكير..

يغمض عينيه مجبرًا نفسه على النوم ولكن الأفكار ما زالت تتآمر داخل عقله

يتمتم ويتذمر.

يتسآل: " ماذا سيحدث لو أن أمنياتي تحققت؟

كل ما أتمنّاه هو أن أكون كباقي البشر وأظن أنّ التمادي بتلك الأحلام والأمنيات لن يضر أحدا

إنّها أمنيات وإحلام عاديّة بل واقعيّة..

أن يكون لي زوجة وأولاد وبيتًا كبيرًا.. "

بقى ما يقارب العشرين دقيقة على تلك الحالة، يحاور نفسه ويحدّث أفكاره..

"إن لم أستطع النوم سأنهض مجددا، ربما كوب شاي ساخن مع بعض الأعشاب ربما يفيدني ويذهب عني الأرق."

يحاول التغاضي عن فكرته،

"لقد أحضرت لك كوب شاي ساخن مع بعض الأعشاب،

هيا استيقظ كفاك كسلا !"

ينتفض من سريره وكأن صاعقة برق أصابته!

كانت جالسة على كنبة كبيرة خمرية اللّون تسكب الشاي وتحرّك مكعبات السّكر وتبتسم له،

يفتح عيناه يصاب بالذهول والصدمة،

يفرك عينيه ليتأكد ممّا يرى، يهمس: " أنا احلم، أنا متأكد من ذلك! "

يفتح عينيه على آخرهما، يجول بنظره بالغرفة، كل شيء كما أثثه بخياله عدا تلك الكنبة الخمرية اللون.

" ما بك اليوم أشعر إنك أكثرت النوم؟ "

نهضت من مكانها وتوجهت إليه، لمست وجهه بأناملها محاولةً منحه بعضًا من حنانها،

" الشاي سيبرد. "

رفع رأسه ونظر إليها بعيون غير مصدّقة، حاول أن يتكلم، حرّك شفتيه:

" ماذا حدث؟

من أنت وأين أنا؟ "

وبينما هو يتساءل سمع صوت طفلان يتعاركان بغرفة أخرى،

أبعدهما من أمامه بهدوء وكأنه شخص آخر،

نهض متسارعًا ناحية باب الغرفة،

ففتحها ليجد ممرًا طويلًا على جانبيه ثلاثة غرف.

إستقصى مصدر الصوت،

دخل تلك الغرفة حيث أصوت الأطفال يتعاركون..

كانا طفلين لم يتجاوز عمرهما الخامسة، توأمان لهما نفس ملامحه وهو صغير.

هرول الطفلان بمجرد رؤيته..

" بابا بابا "

لم يستوعب الصدمة الأولى فجاءته تلك الصدمة وكأنّها أخرسته،

عانقهما ببرود وابتعد عنهما..

كانت خطواته متسارعة يدخل من غرفة إلى أخرى..

غير معقول أنّه نفس البيت الذي صممه وأثثه بخياله، كل شي كما حلم وتمنّى حتى تلك المرأة الموجودة بغرفته كان يحلم بها بكل تلك المواصفات عندما لمست وجهه بأناملها وتلك الابتسامة الهادئة..

حتى الأطفال، فهو تمنى أن يرزق بتوأم!

كان يمشي ويمشي وعقله متجمّد لا يعلم كيف حدث ذلك!

عاد لتلك الغرفة، فوجدها مازالت هناك بإنتظاره.

" لا تقلق يا عزيزي الأطفال دائما يتعاركون،

هيا تعال واجلس لتشرب كوب الشاي الذي أظن بأنه أصبح باردا "

تقدم ناحيتها وجلس بجانبها احتصنها وما هي سوى لحظات حتى

سمع صوت دوي انفجار هائل اهتز له المنزل وكأن زلزالًا قد أصابه،

هرعا كلاهما ليطمئنا على طفليهما كانت أشلائهما متناثرة بين ركام البيت والدخان يحجب عنهما باقي التفاصيل..

أنهارت قواه، جلس بجانب طفليه يبكي بصمت!

بقي بصدمته مشوش التفكير..

همس بصوت متحشرج يتخلله نحيب

" لا تتفق الأمنيات مع الحرب "

تذكر أن غرفته لم تصب بأي ضرر، هرع حيث سريره والدموع تبلل وجنتيه،

تهاوى بكل أوجاعه على السرير، أغمض عينه،

وتمتم أمنية أخرى..

وبقي مغمضًا عينيه.

سمع وقع أقدام آتيه من بعيد،

تجاهل الأمر واستمر بإغماض عينيه وكأنه خائف من وحش مفترس!

تقدّمت تلك الخطوات لتصبح فوق رأسه أحس بأنامل تداعب وجهه وتحوّلت تلك المداعبات إلى ذراعين حملته ليستقرّ بحضن دافيء.

فسمع صوت أعتقد بأنه نفس صوت تلك المرأة التي تكهّن بأنها زوجته التي لا يعرف ما اسمها.

" يا لك من طفل كسول،

هيا يا ملاكي الصغير حان

وقت ارضاعك. "

يفتح عينيه يرى نفس ملامحها

وذلك الوجه المليء بالحنان والحب.

يبتسم ويبتسم،

تكاغية وتلاعبه

لتزداد ابتسامتة لتتحول

لضحكات

مليئه بالاطمئنان...

***

أنا والسيجارة

تقاذفته رياح الهموم وتثاقلت عليه،

فأصبح كقاربًا جرفته أمواج عاتيه عرض البحر.

صعد الحافلة متوجهاً إلى عمله كالمعتاد

ودفع الأجرة للسائق وهو يبتسم،

غريب أمره لا تفارقه ابتسامته

حتى وهو في أحلك الظروف يوحي لناظريه

بالتفاؤل والرضى.

جلس بمقعد قريب من النافذة وأخرج ما بقي معه من نقود (دينار ونصف) وتنهد في سره:

" ستكفيني للعودة إلى المنزل. "

وأخرج علبة سجائره وهم بإخراج سيجارة ليدخّنها وإذ به يعيدها مكانها إذ لا يوجد بعلبة السجائر ما يكفيه للغد وما معه من النقود لا يسمح له بشراء علبة سجائر جديدة.

فتنهّد بقهر ووجع والتفت إلى النافذة ليلهي نفسه ويشغل تفكيره بشيء آخر غير همومه ومشاكله التي لا تنتهي. ولكن ما كان خارج نافذة الحافلة ليس بالشيء الجلل أو الذي يثير الدهش.

فعاد من جديد وأخرج علبة سجائره من جيبه وأخرج سيجارة وهمّ بإشعالها ولكنه توقف عندما سمع السيجارة تكلمه!

" ما بالك أيها الأحمق حيرتني معك، تطلعني فتعيدني ثم تعود وتطلعني مرّة أخرى وها أنت الآن تريد إشعالي، أولم تقرر أيها الغبي أنك لن تدخن لبعض الوقت لتوفّر ما تبقى معك من السّجائر إلى الغد؟ "

كان فاغرًا فاه كالأبله يحدّق بالسيجارة غير مصدقاً عيناه وأذناه مما يجري

السيجارة تكلمه؟!

إنتفض قليلاً وهزّ رأسه بقوة ربما غفى أو أنه يهذي فالتفت وراءه ونظر أمامه وتأكّد من عدم وجود من يراقبه من الركاب،

فقال لها: " هل تعرفين بما أفكر؟؟

أفكر بالإقلاع عن التدخين نهائيًا

أوتعلمين أنني لم أك من المدخنين ولم يمض على إدماني للتدخين سوى عاماً ونصف، ما الذي دفعني لأدخن لا اعلم،

كنت وقتها مشتّتًا وتائهًا وكأنني شخص آخر وارتكبت بعض الحماقات.. "

وخَرجت من أعماق صدره تنهيدة يأس وإحباط وأكمل حديثه:

" ينتابني دائماً ذاك الشعور بأنني شخص آخر وأنني أنتمي لعالم غير عالمي هذا

أو أنني يجب أن أكون شيئاً عظيماً كأن أكون ملكاً مثلاً أو قائداً أو مخترعاً وربما ممثلاً مشهوراً..

لا أعلم لما أشعر بالإختلاف بكل شيء.

منذ طفولتي وأنا أحلم وأتمنى أن أحقق ذاتي وأصنع مستقبلي كما أريد.

وعندما كبرت قليلاً وفهمت الحياة وتعثّرت بعقبات الظروف وتكالبت عليّ الهموم ونهشتني الخيبات وزلزلتني المواقف الصعبة فادركت حينها أنّ الأحلام والأمنيات مستحيلة

مستحيلة وبعيدة عن متناول يدي..

وكيف لا تكون كذلك

وأنا قابع في بلاد الإحباط والهزيمة،

في بلاد الواسطة والرشوة والنهب والسلب والاضطهاد والذّل،

في بلاد كلٌّ يغني على ليلاه.

في بلاد الباشاوات والعبيد،

في بلاد لا يحق لي الاعتراض فيها

على مرتبي الشهري..

لا يحق لي أن أترقّى لأن فلان وفلان "مدعومين"

فهم أولى بالترقية!

لا يحق ولا يحق ولا يحق!

إلا ما يرونه مناسباً لمصلحتهم ولو ادعى الأمر أن يدوسوا من يعترضهم

كيف سأحقق أحلامي وأمنياتي

ووالدي يسعى ويشقى بعمله ليأمّن

ما يستطيع للقمة العيش؟؟ "

كان منسجماً بحديثه وكأنه يخاطب بشراً، غاب عن ذهنه أنه يتحدث مع السيجارة

كان ينظر إليها بعينين زائغتين يتخللهما الحزن والشرود..

واحسرتاه ضاعت أحلامي وأمنياتي ودفنت في

مقبرة النسيان..

قالها بكل حسرة وقهر!

أجابته السيجارة وهي حزينة على حاله:

" لا تبتأس ربما تتحقق أحلامك يوماً ما

ولكن ما الفائدة إن أقلعت عن التدخين ستزداد إحباطاً ويأساً! "

أجابها ساخراً: " وكأنني بالتدخين أسعد حالاً يا لك من بلهاء! ففوق شقائي أصبت بالأمراض المزمنة من سعال وضيق التنفس ووجع بالحلق وغيرها من الأمراض وزيادة مصروف. "

فقالت له مستهزئه: " ولكنك لن تستطيع الإقلاع عن التدخين!! "

" أوتتحديني؟؟ بل أستطيع وبكل سهولة "

أجابته: " لن يكون بمقدورك ذلك! "

أجابها بغضب وصاح ثائرًا:

أستطيع ذلك أيّتها الملعونة وسأبدأ بك!! "

وأخذ يهرسها بين يديه بغضب وجنون وصدرت أصوات قهقهة من السيجارة، فزاد انفعاله وبدأ يصيح:

" أصمتي أيتها المجنونة! "

وصبّ جام غضبه عليها وصوته يعلو ويعلو قائلاً:

" الموت لك، الموت لك! "

تناثر التبغ بين يديه وتحولت السيجارة إلى أشلاء

ونظر حوله والشّرر يتطاير من عينيه،

فإذا بجميع الرّكاب ينظرون اليه متعجّبين!!

أخذ شهيقاً عميقاً وأخرجه زفيراً هادئاً

وقال لهم بنبرة الواثق من نفسه:

لا تخافوا كل شيء على ما يرام، لقد كنت أتمرّن على دوري بمسرحية (أنا والسيجارة)، وابتسم للجميع فظهرت غمازيته،

وارتسمت ملامح التفاؤل والرّضى على وجهه.

فصفق له الركاب، لقد أبهرهم بتمثيله وكأنه حقيقه.

واشاح وجهه عن الجميع،

وأخرج علبة سجائره مرة أخرى وأخرج سيجارة وأشعلها ونفث دخانها وتمتم وهو يضحك:

" معك حق أيتها السيجارة اللعينة..

لن أستطيع الإقلاع عن التدخين نهائياً!! "

***

سبات أبدي

نصاب بالاستغراب، الدهشة، الذهول،

نعلّل ونستنتج، تأكلنا الحيرة وينهشنا الندم ونعتكف في كهف الحسرة..

أصوات الذكريات تضجّ بالذاكرة وتساؤل مع غصة اللوم والندم،

ماذا كان سيحدث لو اغتنما تلك الفرص واستجبنا للآخر؟

نفصّل من اليأس ثوبًا على مقاسنا،

وننسج من البؤس وشاحًا نخفي تحته ملامح وجوهنا التعبة..

نخاف المغامرة، ندفن رؤوسنا بالتراب كالنعامة،

فاغرين أفواهنا كالبلهاء..

يأتيها صوته من بعيد، من مدخل البيت،

يختلف اسمها كل مرّة أحيانا حبيبتي، أو اسمها أو اسم الدلع المعتاد عليه..

لا تجيب، تتركه يتكهّن أين هي.

ربما تكون بالمطبخ تعد الطعام وربما بغرفة الأولاد تساعدهم لاختيار الرسوم المتحركة المفضّلة لديهم وربما في الحمام تحاول فرز الملابس المتّخسة لتضعها بالغسّالة.

يباغتها كل مرّة بإرعابها أينما كانت ولكنها لم تحب مزاحه بالمطلق البعيد.

متوتّرة متذمّرة قلقة ذلك القلق الممزوج بالشّرود.

تحاول إرغام نفسها على التّأقلم على تقبل كل شيء ولكنها سرعان ما تعود لتلك الحالة الجافة وكأنّ يباسًا عصف بروحها.

تفكر، تسرح، وتنهمرعليها الأسئلة:

" لِمَ أنا؟ ما فعلت بحياتي ليحدث لي ما حدث؟

وكيف سأتقبّل الأمر؟ إنّه صعب لا أحد يفهمني،

إبني مريض بالتّوحد، المرض الذي نسبة شفائه ضئيلة، لن يكون كباقي الأولاد، لن أفرح به عندما يصبح شابّا كباقي الأمّهات، سأبقى قلقة عليه ما حييت!

إنه أمر مأساوي أن يكون ابنك البكر غير طبيعي، فرحة قلبك، فرحة عمرك، كل ذلك ذهب أدراج المرض. "

يعيدها صوته إلى الواقع حيث يجلسان سويا يشاهدان التلفاز،

" ما بك حبيبتي؟ لم انت شاردة؟ "

تململ بضجر بضع كلمات تخرج من حنجرتها بصعوبة

" لا شيء، لا تقلق أنا بخير.. "

ترسم شبه ابتسامة ذليلة كي تطمئنه،

يقترب منها يحيطها بذراعيه،

يخبرها أنه بجانبها وأن كل شيء سيكون على ما يرام،

فقط اصبري.

يقترب أكثر وأكثر يحاول ملامسة شفتيها يهمس أنه مشتاق لها،

تتنصل من بين ذراعيه وتبتعد عنه بفتور وعدم اهتمام..

" أنا تعبة اليوم أريد أن أنام! "

تنهض بخطوات هزيلة تجر قدميها تذهب لغرفة النوم ترمي بثقل جسدها على السرير،

وما إن تضع رأسها على الوسادة تتناوب الأفكار برأسها كل تلك الأفكار والتساؤلات

ترهقها حدّ التعب وبنهاية المطاف تخلد للنوم بعد صراع طويل مع الأرق.

يتبعها بعد أن ينهي مشاهدة الفيلم الذي لم تتعنّى لإكماله معه،

ينام بجانبها بهدوء يحضنها يحاول من جديد..

إشتقت لك!

يحاول إيقاظها يداعبها يحسّس عليها،

تستيقظ تتذمر!

تغضب والنّعس مازال معششًا بعينيها

" أففففف دعني أنام، أنا تعبة جدًا!

دع الشوق للغد سأكون أفضل حالًا. "

يبتعد عنها وخذلان كبير يحيط به، يحاول النوم ولكن دون جدوى أصابه أرق ممزوج بالفقد والحرمان.

يتمتم يلعن يشتم!!

" كل يوم على هذه الحال دع الشوق للغد؟!

ماذا تعتقدني حجر لا أشعر؟ ليس لدي أحاسيس؟ "

ينهض فجأة ويذهب إلى الصّالة يشغل التلفاز، يقلب بالقنوات يصاب بملل وقرف، يبقى هكذا إلى أن يغلبه النّعاس،

وينام على تلك الحالة..

تستيقظ متأخرة بعض الشيء، تذهب للحمام تغسل وجهها مستغربه كيف أن أولادها لم يأتوا لإيقاظها،

تداعب أنفها رائحة القهوة، تذهب حيث الرائحة في المطبخ تجد كل شيء مرتب ونظيف ولا يوجد في حوض المجلى أي من الأواني

والصحون. نظرت إلى طاولة الطعام دهشت من المنظر، إفطارًا معدًا بعناية أغلب أصنافه مما تحب.

ألقت تحية الصباح عليه، ركض الأولاد ناحيتها حضنتهم بكل حنان وحب..

جلست على أقرب كرسي،

" تفضلي وأجمل فنجان قهوة لحبيبتي. "

أمسكت فنجان القهوة والذهول بادٍ على ملامح وجهها،

بادرها قائلا:

" لقد أعددت الإفطار للأولاد،

اليوم لنا أنا وأنت فقط! "

تحرك ناحية الأولاد وهمّ بحمل طفلته الصغيرة،

" هيا يا أولاد إلى غرفة اللعب سأضع لكم رسومكم المفضلة. "

وأثناء ذهابه للغرفة غمزها وابتسامة حب تغزو وجهه!

عاد بعد بضع دقائق حاول أن ينثر الفرح والسعاده بالبيت،

" اليوم إجازه لن أذهب للعمل، أي أنا ملكك أنت والأولاد اليوم.

سنذهب للتسوق وبعد ذلك إلى المطعم الذي تحبين. وبعدها لدي مفاجأة صغيرة لك! "

إرتسمت نصف ابتسامة على شفتيها

ولكن دون تعليق،

وإرتشفت ما تبقى من القهوة..

جلس على كرسي مقابل لها وبدأ بتناول إفطاره بصمت متعب.

بمجرد التفكير بالأسباب لا نعلم كيف لم يتبادر لعقولنا أن الألم والوجع سيكون بما زرعت أيدينا،

نحن من نزرع براعم الشوك على دروبنا

فتنمو وتكبر وتتفرع على طرقاتنا وعلى أجسادنا، أرواحنا تخفي مشاعرنا تشوهنا من الداخل والخارج

فنجبر لاحقا أن نمشي عليها لتدمي أرواحنا..

جلس متهالكًا على الكنبة وعقّب:

" كان يومًا طويلًا وممتعًا. "

كانت جالسة على الطرف الآخر وبعضًا من التّعب يبدو عليها،

وعلّقت: " معك حق كان يومًا طويلًا ومتعبًا. "

مازال ذلك الجمود يسكنها يحتلها كروح شريرة تأبى الخروج.

نظر إليها محاولا أن يستفهم، يستفسر بين وبين نفسه عن عدم سؤالها عن المفاجأة، يبدو أنها نسيت لا بأس.

يذهب حيث خبأ المفاجأة ويعود بمرح وسعادة

" أغمضي عينيك! "

تغمض عينيها ببرود..

" إفتحي عينيك! "

يقدم لها العلبة،

تفتحها بدون لهفة بدون ترقب، هكذا وكأنها غير مبالية بما ستجده بداخلها، لم ينتابها الفضول!

كان موبايل جديد، الأحدث بل الافضل!

لم ير لمعة الفرحة و السعادة في عينيها

ببساطة كانت عديمة المعنى!

وضعته على الطاولة،

كلمة واحدة خرجت من بين شفتيها بعد طول عناء:

" شكرا!! "

تجاوز الأمر، تجاهل كل شيء برّر تصرفها خلق الأعذار،

تناسى لا يريد خسارتها..

جلس بجانبها وكالعادة احتضنها وبدأ بتلك المهمّة للشوق،

تسلّلت من بين ذراعيه وابتعدت بنفور وبلادة!

" سامحني لن أستطيع اليوم أنا تعبة جدا جدا.. "

وبينما هي تتكلم وتعتذر

هبّ واقفًا غاضبا،

" ماذا بك؟

لما تفعلين ذلك بي؟

كل ذلك الإهمال والصد والرفض!!

ماذا تريدين مني أن افعل أكثر مما فعلت؟

أحاول جاهدا أن أقف بجانبك، أعلم أنك خائفة على ابننا ولكنه ابني أيضا، أوتعتقدين أنني غير مهتم وأنني لا أموت كل يوم مئة مرة عندما لا يحدثني كباقي الأطفال؟

ولكن ما النّفع إن اكتئبت أو استسلمت؟

لن يجدي ذلك شيء سوى العذاب والتعب،

ولذلك رضيت بما هو مقدر..

إصح إفعلي شيء أنظري إلى نفسك لا تشبهين النساء بشيء!

شعرك ثيابك إهمالك لأعمال المنزل دائمة الإستسلام..

لم أعد أتحمل صديقي حاولت معك مرارا وتكرارا ولكن لا جدوى، دائما اخبرك بأنني رجل ولي رغباتي حذرتك أكثر من مرة لا تدعيني أنظر لغيرك!! "

ماذا فعلت؟

لا شيء!!

نظرت إليه بشفقة بينما تصب قليلًا من اللوم على نفسها كثيرًا من الكفر بالظروف التي أجبرتها أن تبقى على تلك الحالة..

نهضت متثاقلة كعادتها،

" أنا تعبة أريد أن أنام، تصبح على خير! "

حيث حرب الأرق بانتظارها،

ذهبت غير آبهة لثورة الغضب التي تملّكته،

ولم تبالي بالعواقب..

كل ما يشغل تفكيرها كان ابنها المريض وكيف حطّم جميع آمالها وجعلها سجينة مرضه

وخوفها من الإنجاب مرة أخرى، فربما يتكرر الأمر

فتصبح بمصيبتين!

خوف وحيرة وتخبط وشعور بالضياع،

تمتمت والنعاس يداعب جفنيها:

" لا أحد يشعر بي ولا أحد يفهمني! "

نصاب بالجفاف، تتلبسنا شياطين السراب،

يتخبطنا الوهم..

خوف خوف خوف!

يلاحقنا دائما وأبدا وكأنه في جيناتنا الوراثية

لم نكسر الدائرة، ندور وندور

حتى نصاب بالدوار والغثيان..

نتقوقع بصدفة الهزيمة،

سبات أبدي في مقابر التّردد..

نبرّر كل شيء،

حتى فشلنا وبؤسنا!

نلوم ونلوم ونلوم..

القدر، البشر، الحياة، الزمن، المسافات، الظروف..

كلها مبررات لكي نستمر بوهمنا ويباس مشاعرنا.

لا نعلم قيمة الأشياء إلا بعد فقدانها..

جاء ذلك اليوم مبكرا على غير عادته، دخل البيت

وجلس في الصالة،

سمعت صوت الباب يغلق، إنتظرت أن يناديها كعادته ولكن لم يفعل..

إستغربت الأمر قليلا وانتظرت لبضع دقائق

دون أن تسمع صوت.

إعتقدت أن أحدا من أولادها فتح باب المنزل وخرج!

ذهبت مسرعة لتتأكد، وجدته جالسا هناك

والوجوم باد على ملامح وجهه!

نظرت إليه مستفسره بصوت مرتجف وكأنها استشعرت بالخطر..

ما بك عدت اليوم مبكرا على غير عادتك؟؟

لم يستطع النظر إليها،

تردد كثيرا قبل أن يفتح فمه، حدث نفسه مرارا

سأخبرها وليحدث ما يحدث!

نطق وتكلم بصوت قلق من ردة فعلها:

" لقد تزوجت بأخرى اليوم! "

وعقب بصوت يتخلله حزن

وشفقه على كليهما:

" سامحني لم أعد أتحمل إهمالك لي.. "

تهاوت على أقرب كنبة، نظرت إليه مصدومة

ودموع متغرغرة بعينيها وغصة بحلقها تخنق الكلمات..

عاودها ذلك الشرود مجددا

يصحبه خواء يتخلله صفير مزعج

فأصبحت كريشة في

مهب الندم...

***

تلبّسها جنّيّ

دائما نتغنى بأمجاد الماضي وبطولات خلدها التاريخ وقصص مروية كخرافة مسبوكة الحبك،

نفتخر بسلالة الأجداد المروية بالعنعنة، نتذوق طعم السكر بحكايات جدتي.

إستهوتنا الخرافة أكثر من قصص الواقع،

تعمقنا بكل شيء قديم وتوارثنا فن السّرد والحبك، وفتح شهية المستمع بالرعب والإثارة والفضول

إنتظار دائم للنهاية..

نصدق مرغمين مبهورين بذلك الكم الهائل من الإثارة والتشويق، (أمنّا الغولة)، (أبو رجل مسلوخة)، (الشاطر حسن)، (بنت السلطان)، (ليلى والذئب) ...

كلها قصص زرعت فينا الخوف والسذاجة!

" عليك بالتفكير مجددا البنت مازالت صغيرة! "

كان كلامها فيه بعض التردد والحيرة.

"إنتهى الموضوع أنا وافقت! "

ترتبك الأم وتضطرب، تحاور نفسها، تتمتم:

" هذا ظلم وتسلط!

البنت لم تتعدّى الخامسة عشر

ومع ذلك يريد تزويجها ويا ليته زوج يستحق ذلك،

أرمل ولديه أربعة أولاد!

ما ذنبها أن تتحمل كل هذا العذاب والشقاء!

مسكينة أنت يا ابنتي.. "

تنحدر الدموع على وجنيتيها حارة

تحرق ما تبقى من تفاصيل وجهها

المثقل بالهموم..

تزف الفتاة الطفلة لرجل يوازي والدها عمرا وتنتقل إلى بيت العائلة.

لا مفر من ذلك ستسكن مع عائلة زوجها وأخواته وإخوته وأولاده!!

ترغمنا قرارات من عقول متزمّتة على الصمت والرضوخ تحت مسميات كثيرة لا مغزى من وجودها،

مسمى الستر والعفّة والشرف!

خضوع تلو الخضوع يتلوه استسلام ويعقبه تأقلم مميت.

تأقلمت الفتاة وتعايشت مع الظروف المفروضة عليها. أنجبت فأصبحت أما وكأنها بذلك تغرس جذورها بأرض الواقع.

كانت كالخادمة،

لم تتذمر ولم تشكو سوء معاملة أهل زوجها وأولاده لها سوى لوالدتها.

" لا عليك يا ابنتي تحملي هذا شيء عادي عليك بالصبر،

غدا يكبر أولادك وتفرحين بهم وستنسي كل شيء. "

تصبرها كلمات والدتها مسافة تنهيدة.

كان يوما غائمًا ممطرًا عندما استيقظت بمنتصف الليل تحدث

زوجها ضاحكة:

" ما بالك تدغدغني؟ "

يستيقظ الزوج فزعا و يقول:

" ما بك؟

مع من تتحدثين؟ "

" أحدثك أنت لقد كنت تدغدغني! "

وتلك الضحكة المكتومة مازالت تداريها بيديها.

" كنت نائمًا ولم أدغدغك!

اللّٰهُمَّ ثبت علينا العقل والدين. "

يعود الزوج ليكمل نومه وهو غاضب من تصرف زوجته المجنون.

في صباح اليوم التالي كانت مستيقظة تقوم بمهامها كما اعتادت،

تدخل على والدة زوجها بالقهوة تجلس جانبها

تبتسم وتضحك كساذجة، تستغرب والدة زوجها الأمر.

" ما بك تضحكين كالمجنونة "

تنظر إليها بهدوء والضحكة لم تفارق شفتيها

" لا شيء عادي"

تطوّر الأمر ليخرج عن المألوف، ذات ليلة حالكة الظلمة

يستفقدها زوجها لأنها لم تكن بجواره،

ظن أنها ذهبت إلى الحمام لتقضي حاجتها وربما لتشرب الماء.

حاول النوم مجددا ولكنه لم يستطع

فقد تأخرت.

نهض من سريره متثاقل الخطى يستعلم أين زوجته.

كانت تجلس بفناء البيت هادئة كهدوء بحيرة تداعبها نسمات الربيع

تبتسم تارة وتارة أخرى تضحك!

إقترب منها وقال:

" ما بك؟ لما تجلسين هنا وما بك تضحكين كالمجنونة؟ "

رفعت رأسها ونظرت إليه كانت نظراتها ساهمة خفضت رأسها لتعود لتلك الحالة

يسكنها هدوء كهدوء الأموات.

إستشاط الزوج غضبا لأنها تجاهلته فانحنى فوقها وأمسكها

من ذراعها،

" هيا قومي يكفيك جنون وسخافة "

تجمدت تسمرت تشنجت!

لم يستطع جرها بسهولة،

إنحنى أكثر أمسكها من ذراعيها بقوة وبدأ يلعن ويشتم.

دون دراية منها بدأت تصرخ وتولول:

" أتركني أتركني أبعد يديك عني!! "

علا صراخها،

فوضع يده على فمها يريد إسكاتها،

" سيقتلني يريد خنقي،

ساعدوني ساعدوني! "

كانت تخبّط على صدره، وجهه، الهواء، السكون،

العتمة، وكل شيء تطاله يداها.

إبتعد عنها.

نظرت إليه وبدأت تتكلم وهي تضحك وتضحك،

" لن أدعك تقتلني، أعلم إنك تريد قتلي! "

كانت تضحك بهستيريا وعدم اتزان،

وما هي إلا بضع دقائق حتى وقعت على الأرض مغشيًا عليها.

حملها بين ذراعيه ومدَّدها على السرير.

جميع القصص وحكايات جدتي وروايات الأساطير كلها كانت تروى بشيء من البلاهة والعفوية

إلا تلك القصص، قصص الشياطين، إبليس وأعوانه، قصص الجنّ الغامضة

كغموض الكنز المدفون وليس له سوى نصف خريطة

كانت تروى بشيء من الحذر والهمس والوشوشة

وكثير من الخوف.

لم نعلم ما مصدرها إلا عندما كبرنا

الجن حقيقي ومذكور بالقرآن، اللّٰهُمَّ آمين.

تأزمت حالة الفتاة إلى أبعد من ذلك أصبحت جثة هامدة لا تقوى على السير

يحيط بها أهلها وأهل زوجها من كل إتجاه، الأم تجلس فوق رأسها تتمتم ببعض من آيات القرآن الكريم

والزوج عابس متجهم الملامح.

" ماذا أصابها ماذا حدث لها؟ كانت كلها عنفوان وهمّة

لم أسمعها تشكو من أي شيء! "

تتدخل والدته:

" عين وأصابتها، الله ينتقم من الناس الحسودة

التي لا تحب الخير لأحد. "

تهز الأم برأسها موافقة على كلامها

ويعقب الزوج على كلام والدته،

" معك حق هي

عين حاسدة أصابتها

سأحضر الشيخ اليوم بعد صلاة العشاء ليتلو عليها

رقية شرعية. "

تصحو الفتاة تنظر للجميع بنظرات هشّة باهتة، تبتسم تشعر بثقل جسدها وغياب لسانها تشير لوالدتها أنّها تريد ماءً، حتى الكلام اختفى فأصبحت كالصّماء.

بعد صلاة العشاء كان الشيخ موجودا بغرفتها

يقرأ ما تيسر من آيات القرآن الكريم

المخصّصة للحسد.

لم تتحسن حالتها وعزفت عن الطعام، فقط بضع قطرات ماء تبلل بها حلقها كل حين وحين ثم تغيب عن الوعي لساعات وربما لأيام.

أصبحت هزيلة، برزت عظام وجهها ونحل جسدها

حتى أصبحت كوردة بصحراء قاحلة لم يهطل عليها المطر منذ ازل بعيد.

ظلّوا يجتمعون حولها يطلبون من الله الرأفة بها.

في مرّة إقتربت والدة زوجها من الأم و وشوشتها بسرية تامّة:

" أعتقد أن ابنتك قد تلبّسها جنّي! "

إرتعبت الأم وابعدت رأسها إلى الخلف وكأن ثعبان قد لدغها.

إقتربت الأم ناحية والدة الزوج توشوشها هي الأخرى:

" بصراحة عندي شك بهذا الموضوع ولكنني أكابر،

أكيد هناك أحد قد عمل لها عملا او سحرا

وسلّط الجني عليها!

يا حسرة على شبابك يا ابنتي."

إنتبه الآخرون لما كان يدور بين الوالدتين.

تعجّب الزوج والأخوة والأخوات بنظرات مستفسرة عن الموضوع السّري،

أخبرتهم الأم بالأمر فبدأ الجميع يسمي بالله.

منهم من استنكر، ومنهم من أقرّ،

مع بداية النهاية الجميع أجمعوا أنّ جنيّ كافر قد تلبّسها.

جاء الزوج بالشيخ الجليل، لم يعلق بشيء سوى بأنّه سيخرجه من جسدها بإذن الله تعالى.

دخل غرفتها حيث جسدها المسجى على قارعة الإحتضار غير دارية بشيء وكأنها بعالم خاص ابتكرته من خيالها.

مازالت الابتسامة مرسومة على شفتيها رغم كل شيء.

طلب الشيخ ماءً نظيفًا ومن الحضور الخروج من الغرفة

باستثناء الزوج ووالدته والأم.

بدأ بتلاوة آيات من القرآن الكريم على الماء مخصّصة هذه المرّة للجنّ الساكن جسد تلك الفتاة المكسينة

يحاول أن يجعلها تشرب ولكن دون جدوى.

كانت بعالمها ترفض أي شيء من الواقع حتى لو كان فيه عودتها للحياة ربما أعجبها ذلك العالم الخيالي.

نظر الشيخ إلى الوجوه الشاحبة المستفسرة،

أخفض رأسه وتكلم بصوت مصحوب بالأسى والأسف:

" لا يوجد غير حل واحد لكي يخرج الجن من جسدها. "

سأل الزوج متلعثمًا خائفًا: " ما هو الحل مولانا؟ "

" الحل أن أضربها ضربًا غير مبرح بالبداية وإن لم يستحب ويخرج سأكون مضطرا للضرب المبرح! "

سقط قلب الأم وانتحبت، خافت على ابنتها.

" هل ستشعر بالضرب وتتألم مولانا؟ "

سألت الأم مفجوعة.

" لن تشعر بشيء، أنا سأضرب الجنّي فقط.

قد يظهر على جسدها بعض الكدمات ولكنّها عندما ستصحو لن تتذكر شي.

ولكنّ الأمر صعبًا جدا ويحتاج للوقت وأفضّل لو تخرجوا جميعًا لكي لا تتألموا عند مشاهدتي وأنا أضربها."

الأم بخوف وحسرة:

" مستحيل أن أخرج سأبقى معها ربما تصحو ولا تجدني! "

" لا عليك مولانا إبدأ بما تراه مناسبا. " أجاب الزوج وكذلك والدته.

كان يضربها على قدميها أولًا ولم تستجب الفتاة، بقيت بعالمها مسالمة مستكينة.

لم يستلم الشيخ وبدأ بضربها على جميع أعضاء جسدها دون رحمة أو شفقة.

وكان يصيح بأعلى صوته:

" أخرج يا لعين!

أخرج يا عدو الله، أخرج من جسد هذه المرأة الفاضلة.

أخرج عليك لعنة الله في الدنيا والآخرة!! "

لم تحرك الفتاة ساكنًا ولم تصرخ، تستنجد أو تتوسل. لم تطلب الرحمة!

فتحت عينيها، نظرت حولها، تسمّرت عيناها على وجه والدتها.
إبتسمت برضى وفرح..

إستمر الشيخ بضربها بجنون وغضب من ذلك الجني الكافر الذي يتحداه ولا يريد الخروج.

" أخرج يا كافر!! "

أغمضت الفتاة عينيها مسلّمة روحها إلي حيث قرّرت البقاء..

تقدم الشيخ الجليل منها جسّ نبضها وأنزل رأسه

بوجوم وحزن:

" لقد قتلها الجنّي،

قتلها عدو الله!! "

***

بقايا حلم برائحة العشق

نظرت إلى المرآة كعادتها نظرة خاطفة،

لم تكن من ذلك الصنف من النساء

اللّواتي يقضين وقتاً طويلاً أمام المرآة ولم تهتم يوماً بأمور "الميك أب" وخلافه من أمور الزينة والتبرّج.

كان شعارها دائماً: " لن ازيف حقيقتي لأرضي أياً كان،

من يريدني على حقيقتي أهلا وسهلا به، ومن لا يعجبه حالي

الله معه! "

تزوجت مرتين وفشلت بكلاهما ولم تنهزم أو تستسلم.

زواجها الأول لم يتخطى السنة وكان الإنفصال سريعاً وما أراحها أكثر أنها لم تنجب الأولاد.

وزواجها الثاني كانت تُجمّله بصبرها وطولة بالها، كان زواجًا فاشلًا بكل ما للكلمة من معنى، كان زواجًا تقليديًا ولكنها كابرت وادّعت القوة.

" كيف سأفشل هذه المرة الثانية، ماذا سيقول الناس عني؟ "

وحاولت الإستمرار بكل ما أوتيت من قوّة

فأنجبت وأصبحت أماً، وتوالت السنين برتابتها بحلوها ومرّها.

ولكن في نهاية المطاف لم يعد يجدي الصبر والتحمل نفعًا،

فانهارت لثقل الحمل عليها وتحررت من قيود الزواج،

وسارعت للانتقال إلى بيت خاص بها وبأولادها، وسرعان ما تأقلمت مع حياتها الجديدة بدون قيود.

ودقت الوحدة بابها، فأحسّت بالفراغ والملل يلتهمان أنوثتها بوحشية وخاصة بعدما يخلد أولادها إلى النوم.

وأكثر ما كان يأرقها انها لم تعش كامرأة بكلا الزّيجتين.

فكّرت بالزواج للمرّة الثالثة،

" ولم لا؟

مازلت في عنفواني، تخطيت الأربعين من عمري، ولكنّي لا أشعر أنني هرمت،

بالعكس أشعر أنني قادرة على العطاء والحب. "

وتعرفت بآدمها، وكانت الصدفة ما جمعتهما وكأن قوى الجاذبية جمعت ما بينهما. وسرعان ما نشبت مشاعر الحب والعشق بينهما وأضرمت نيران اللهفة والاشواق.

وفي متاهات الحب والعشق والجنون انطلقا. لم يوقفهما شيء حتى فارق العمر بينهما لم يلقيا له بالا.

توازيه عمراً ضعف عمره، في بادئ الأمر استسخفت الموضوع واستبعدت أن تدخل معه مغامرة فاشلة تعرف نهايتها مسبقاً

ولكنه تمسك بها بل ترجّاها أن تعطيه فرصة ليثبت أنه جدير بها.

وكانت عندما تخلو بنفسها تتساءل لماذا هو، وقد تقدم لها من يناسبها عمرا وحتى كانوا أكثر اصراراً وتمسكاً

ولكنها كانت ترفضهم ولم تتح لأحدهم أي مجال.

تتذكره وتسرح بعيداً بعالم عشقه وحبه وكيف أسرها وامتلك قلبها وروحها دونما أن تدري

ولا تعلم كيف أو أين أو متى حدث ذلك.

كل ما تعلمه أنها تعشق العشق من أجله!

أحبته بكل ما للحب من معاني بل فاق حبها له فوق حدود الخيال والواقع،

ما جمعهما كان أكبر..

إستمر حبهما بالنمو والتفرع في روحيهما كما تنمو جذور شجرة الزيتون في الأرض.

حتى عندما يتخاصمان، تصاب بالجنون تحاول أن تصالحه حتى لو كان هو المخطئ لا تعلم أي جنون يصيبها عندما يغضب تصبح هشّة بل خاويه منهزمة، تصاب بالإحباط والكآبه لمجرد أن يبتعد عنها ولا يرد على رسائلها، تكتب عشرات الرسائل ترجوه أن يرد عليها

وتستجديه أن يرحم عذابها وأشواقها وتحلّفه بكل عزيز وغال على قلبه وتكتب له كلمات الحب والعشق فترسلها له ودموعها تنهمر على وجنتيها تحرقها وتلسعها نيران الشوق والعذاب..

وبعد محاولات عدّة يكتب لها، فتصلها رسالته فتقرأها بعيون العشق والحب وتسبقها ابتسامتها لمجرد أن تلمح اسمه وينبض قلبها وكأنه عاد إلى الحياة.

فتتصل به مسرعة يعيدها صوته إلى الدنيا بل يعيد روحها إلى جسدها وقلبها إلى صدرها تختلط كلماتها بدموع الفرح والسعادة، وجملة واحدة تكررها: " إشتقت لك يا روح الروح! "

وبمجرد أن يسمع صوتها تعيده اليها بهمساتها وصوتها المبحوح ويعترف باشتياقه لها وكم كان يتعذب ببعده عنها، ويلعن الغضب والزعل ويلوم نفسه كيف سمح لنفسه أن جعل عيونها تدمع ويعتذر لها.

ويتنافسان من كان شوقه للآخر أكثر ويبوح لها كيف كان يراقبها كلّما تبوح له بعذابها ببعده عنها،

وسرعان ما تنسى ما كانت تعانيه بغيابه

ويعودان عاشقان وتشرق شمس أرواحهما.

وكأن الخصام يزيدهما قرباً وتمسكاً وتمتزج أرواحهما وتتأجج نيران أشواقهما في محاريب العشق.

وكانت تحدثه عن أحلامها وأمنياتها فتقول له:

" كان لي أمنيات وأحلام كثيرة قبل أن أعرفك ولكن تنازلت عنها جميعها، أما الآن فلي أمنية واحدة أتدري ما هي؟ "

يجيبها بمكر ودهاء:

" ما هي؟؟ "

تجيبه بصوت متهدج وحزين وتصاحب كلامها تنهيدة تخرج من أعماق روحها:

" أتمنى أن يعود بي الزمن للوراء عشرين عاماً لأوازيك بالعمر. "

يضحك عليها كثيراً ويقول:

" ولكنك تعجبينني كما أنت! "

ولكن فارق العمر بينهما كان هاجسها ويأرق ليلها، فكانت تتمنى لو يخترعون آلة للزمن تعيد البشر إلى أي عمرٍ يريدونه. كانت تريد أن يكون معها يعوضها سنين عذاباتها، أن يلوّن حياتها كما يفعل دائماً

لم تدم سعادتها طويلاً إذ بشبح الفراق يدق بابها!!

عندما تخلو بنفسها كانت تفكر كثيراً،

" ماذا بعد الحب؟؟

أيعقل أن يستمر حبنا رغم بعد المسافات والحواجز والعراقيل ورغم أكبر عائق وهو فارق العمر الكبير بيننا؟؟ "

بعد طول تفكير ومشاورات بين قلبها وروحها وعقلها

إتخذت القرار،

كانت مرغمة، فكرت بعقلها،

" لم الاستمرار؟؟ سأظلمه معي!! "

وطلبت منه بصوت متدهدج مخنوق بكلمات الفراق،

" إذهب وعش حياتك ما زلت شاباً،

لن أنفعك! "

حاول أن يثنيها عن قرارها ولكنها كانت تفكر به،

" لن أكون أنانية وأظلمك معي، ثق تماماً لأنني أحبك سأبتعد! "

وكان الفراق هذه المرّة مرٌّ كمرارة الحنظل لم يك خصامًا أو دلالاً، وإنما قرارًا عقلانيًا.

تعذّبت وتألمت، بل ماتت موتًا من نوع آخر!

جثة هامدة جسد بلا روح وقلبٌ خفتت دقاته.

لا يؤْلمنا الفراق أو الرحيل وإنما يؤْلمنا ما بعد الفراق..

الترقُّب والحنين والذكريات كلها تقتلنا كل يوم فتميت جزءًا منا

أصبحت أيامها باهتة رتيبة ومملة.

ما أصعب أن تتخلى عن روحك وقلبك بمحض إرادتك تحت مسمى! (قرارٌ عقلاني)

وتمر أيامها متشابه لم يعد لحياتها معنى وأصبحت كرواية مزقت أغلب فصولها وأجزائها ولم تعد تصلح للقراءة.

فعادت تمارس أمومتها كسابق عهدها وتغدق على أولادها فيضاً من حنانها وعطاءها اللذين لا ينفذان مهما حدث. لم تشعرهم بأي تغير، ولم يخلُ الأمر في بعض الأحيان عندما يذهبون للعب بغرفهم من الشرود بأفكارها بعيداً عنهم.

تذهب إليه بروحها وقلبها دونما إرادة منها يهزها الشوق ويعذبها البعاد ويقتلها الحنين وتُميتها الذكريات.. تفتح جهازها الخلوي لاشعورياً فتقرأ رسائلهما القديمة. لا تملّ من قرآءتها وتذهب مباشرة بعد ذلك إلى ألبوم الصور، لكل صورة حدث ومناسبة وذكرى.

تنساب دموعها على خديها وتهمس بصوت لا يكاد يخرج من حنجرتها بصوت ممزوج بالحب والعشق والشوق والأسى: " لقد اشتقت لك يا روح الروح! "

وتسأل نفسها عمّا يفعله حينها؟!

"هل يفكر بي ؟!

هل يشتاقني كما أشتاقه ؟! "

ويعيدها إلى الواقع صوت أولادها يتهاوشون ويعلوا صراخهم فيهرعون إليها لكي تنصفهم، تبتسم وتجبر نفسها على الضحك لتواري انكسارها وضعفها أمامهم.

وتبدأ بممازحتهم فتوهمهم أنها ذاهبة إلى المطبخ وتختبئ، يطول غيابها فيفقدونها، يبدئون بالبحث عنها وتخرج بعد مضي وقت ليس بالكثير من حيث لا يتوقعون وتفزعهم بضحكتها بصوت عال يرتجفون فزعاً في بادئ الأمر ثم يهجمون عليها كلًا يريد النيل منها!

ويتناوبون دورهم فيختبئون عنها كلًا في زواية جاهدين أن لا تعرف أماكنهم. وأكثر ما كان يضحكها عندما يختبئون في خزائن الثياب الصغيرة ولكن أكثر ما كان يبهجها ويدخل مزيداً من السرور والسّعادة إلى قلبها صغيرها ذو الأربعة أعوام، كان يختبئ وراءها وكأنه يخشى أن لا تجده فتحمله بين ذراعيها تقبله وتحتضنه بكل جنون وحب وتهمس له:

" ما رأيك أن نأخذ قيلولة؟ "

تذهب لغرفة نومها وتوصيهم بأن لا يتشاجروا ثانية.

إستيقظت من نومها وذهبت إلى الحمام لتغسل وجهها،

ولكن حدث شيء غير متوقع!

عندما نظرت إلى المرآة تلك النظرة الخاطفة كعادتها إذ بها ترى وجهاً آخر غير وجهها!

أصابها الرعب والخوف وتعوّذت بالله من الشيطان الرجيم،

أيعقل أن يكون بيتها مسكون! والتفتت ورائها ونظرت بكل الإتجاهات لم يكن هناك أحدًا سواها

وعادت من جديد بخطوات مرتجفة خائفة لتنظر إلى المرآة. ونظرت هذه المرّة وأطالت النظر وصدمها ذلك الوجه بالمرآة!

إنّه وجهها ولكن لا يوجد به تجاعيد أو بثور ولا علامات تقدم العمر إنّه وجهها عندما كانت شابّة بمقتبل العمر!

تحسّست وجهها لتتأكد، إبتسمت وذهلت من هول المفاجأة أسنانها ناصعة البياض عيناها العسليتان يظهر بريقهما، شفتاها بلونهما الوردي!

وضحكت بصوت مرتفع يا إلهي لقد تحققت أمنيتي، لقد عدّت شابّة، عاد الزمن بي إلى الوراء ورقصت فرحاً وسروراً لا تكاد تصدق أنها عادت إلى شبابها!

وتذكرت آدمها لن يكون هناك عائقًا بعد الآن يمكننا الزواج.

وذهبت تبحث عن هاتفها لتزف الخبر السعيد له.

وأثناء ذلك تنبهت إلى شيء غريب وهوالهدوء في البيت!!

" أين أولادي؟؟؟

أيعقل أنهم نيام؟؟

ليس من عادتهم أن يناموا وقت الظهيرة! "

وذهبت تبحث عنهم في أرجاء البيت،

لا يوجد في البيت سوى ثلاث غرف!

" يا إلهي، أين أنا؟؟؟

هذا ليس بيتي! "

وأمعنت النظر في البيت، غير معقول، هذا بيت ذويها!

تلعثمت وتحشرجت الدموع بمقلتيها وتمتمت:

" أين أولادي أين ذهبوا ماذا حدث لهم؟ "

ودنما وعي منها صارت تناديهم بأسمائهم وتوهم نفسها أنهم مختبئون كما كانوا يفعلون دائماً عندما يمازحونها!

وبدأت تبحث بالغرف وتفتح الخزائن وتلتفت علّها تجد صغيرها مختبأ كعادته ورائها..

" هيا أيها الأولاد يكفي مزاحاً أخرجوا أو ستحرمون من الحلوى! "

كانت تحاول السيطرة على أعصابها ولكن عندما طال انتظارها إنهارت على الارض تبكي بحرقه وقهر وندم وتتكلم بصوت متشنج ممزوجاً بالحيرة والإضطراب:

" أيجب علي خسرانهم لكي اكون معه؟؟

يا لشقائي يا لتعاستي،

وا رباه وا قلباه! "

وصدرت صرخة من أعماق قلبها المكلوم وارتجفت أوصالها كمن أصابه حُمّى

وعادت تصيح بجنون هستري:

" أرجوكم أخرجوا وعودوا إلي،

لا استطيع أن أعيش من دونكم، أنتم بهجة قلبي وزهور حياتي لا أريد أن أعود شابّة ولا أريد شيئاً من الدنيا سواكم! "

فصار بكائها نحيبا ممزوجا بالأنين والوجع،

وإذا بجسدها يهتز بقوة وتسمع صوت يناديها،

صوتًا تعرفه إنها إبنتها الكبرى ذات الاثنى عشر عاماً

تقول لها:

" ماما ماما ماما!

" إستيقظي ما بك تبكين وأنت نائمة؟ "

فتحت عينيها لترى وجه ابنتها مصفراً من الخوف عليها، ونبضات قلبها تخفق بشدّة وكأن قلبها سيخرج من مكانه.

أخذت شهيقاً وتنفست الصعداء وبأيدي مرتجفة

حضنت طفلتها بقوة تفوق أي عاطفة وجدت على وجه الأرض..

***

سبب وجيه

تتراكم علينا المسؤوليات نحاول بأقصى جهودنا أن نمسك زمام الأمور.

نثابر نقاوم نتحمل ونتحمل حتى يصيبنا كلل، فنصتدم بحقيقة مؤلمة ألا وهي أننا لسنا ضحايا،

نحن من ساعد المجتمع، الظروف، والقدر على أن تهزأ بأكاذيبنا، وأنها ستمر!

كلّ مُرّ لم يَمرء كلّ مُرّ!

بل يزداد مرارة!

" لم قتلتي زوجك؟؟؟ "

لم تحرك ساكنا، كانت تنظر إلى المحامي ساهمة شاردة ترتسم نصف ابتسامة على شفتيها.

أعاد المحامي سؤاله بصيغة أخرى:

" ما السبب الذي جعلك تقتلين زوجك ؟؟ "

وكأن صيغة السؤال هذه المرّة استفزت مكامن الحقد بداخلها!

أنا قتلت زوجي أعترف بذلك وأنا بكامل قواي العقلية!

" لم قتله أو السبب الذي جعلني أقتله؟؟

باختصار شديد لأنه رجل أحمق، نعم أحمق!

تصور لقد نسي أن يحضر صلصة الطماطم التي أوصيته أن يجلبها مع المشتريات التي طلبتها منه!! "

" وهل هذا سبب قوي لقتله بتلك الوحشية؟؟

يشير التحقيق الجنائي بأنك قمت بطعنه أربعة وثلاثون طعنة

لا أرى مما ذكرتي سببًا يدعك تقتلينه،

أريد سببًا مقنعًا! "

تبتسم تنظر للمحامي تنفرج شفتاها لتصدر ضحكة مسمومة

تجاوبه بهمس و كأنها تكلّم نفسها:

" بالنسبة لي يبدو سببًا مقنعًا بل سببًا وجيهًا! "

" سأسألك مرّة أخرى

وإن لم تجيبي بسبب قوي يساعدني لأدافع عنك ستشنقين!! "

تجيبه بكل برود: " لا يهم سيدي إن اقتنعت ام لم تقتنع

المهم أنني الآن راضية كل الرضى عما فعلت! "

تتنحنح وبصوت مرتبك تهمس:

" أريد ماءً لو سمحت. "

ينادي المحامي على الحارس ويطلب منه أن يحضر للسيدة كوب ماء.

تشرب كوب الماء على دفعات متتالية و كأنها تريد إطفاء لهيب حقدها المتأجج بثنايا روحها..

" لم لا تساعديني؟ أريد أن أخفف عنك العقوبة!

فقط تكلمي بصدق دون زيادة أو نقصان! "

" سيدي لا أملك شيئا أضيفه لاعترافي ولتكن عقوبة الشنق جزائي أنا راضية بذلك الحكم!! "

يدخل الحارس ليعلن أن وقت الزيارة إنتهى.

ينهض المحامي ويلملم أوراقه، يسلّم عليها مودعا ومستغربا من أين لها كل هذا البرود والهدوء!

يكبلها الحارس بالأصفاد ويمسكها من ذراعها ليعود بها لزنزانتها الإنفرادية والتي ستنتظر فيها موعد شنقها بعد شهر!!

تدخل الزنزانة تجلس في الزاوية، يعم السكون المكان تتسلل شمس نيسان من قضبان النافذه ترسم على الارض ظلالا أفقية سوداء.

تنظر بأرجاء المكان تسند رأسها على الحائط تغمض عيناها تعود سلسلة الأحداث لذاكرتها تنهض مسرعة ترفع وسادتها وتأخذ القلم والأوراق التي طلبتها عندما حكم عليها بالإعدام

وتبدأ بالكتابة، تسرد للورق كل ما يخطر ببالها.

اليوم اجتمعت مع المحامي الذي عينته المحكمه ليدافع عني وبدأ بسيل من الأسئلة والإستفسارات

أعتقد أنه محام مبتدأ يبدو شابا بمقتبل العمر يريد أن يثبت نفسه،

لا أنكر أنني اشفقت عليه أردت أن أحكي

له كل شي نعم كل شي

منذ طفولتي وأنا مسيرة أفعل ما يريدون كنت فتاة مطيعة إلى أبعد الحدود.

كلمة حاضر هي جوابي لكل طلب يطلب مني، لم أجادل، أناقش، أو أعترض كنت دائمة الرضوخ والطاعة تربيت على ذلك أو ربما أنا كنت مسالمة جدا.

حتى عندما كان أخي الصغير يأتي ويغير محطة التلفاز التي أتابع عليها الرسوم المتحركة المفضلة لدي ليتابع برنامجه المفضل أتذمر، اشكوه لوالدتي فتنهرني بشدّة وتقول:

" دعية يتابع برنامجه إذهبي وساعدي أختك لم تعودي صغيرة لتشاهدي الرسوم المتحركة!! "

" حاضر سأذهب! "

أذهب على مضض أو ربما ليس أمامي سوى الطاعة.

كبرت وأصبحت شابّة وبقيت كما أنا مطيعة،

واكتسبت صفة جديدة راكزة وعاقلة لدرجة أنني رضخت لعاداتهم وتخليت عن حب عمري لأتزوج ابن عمي الذي خُطبت إليه وأنا بالمهد " فلان لفلانة "

إنتقلت من مرحلة الطاعة إلى الطاعة العمياء!

الزوجة يجب تطيع زوجها، هو الآمر الناهي، لا يحق لها الأعتراض أو التذمر!

" المرأة متل السجادة كل فترة بدها نفض!!! "

وكان " سي السيد " ما بين الفترة والفترة يقوم بواجب النفض على أصوله بسبب ومن غير سبب

وأنا " صم بكم عمي!! "

ممنوعة من الشكوى..

التحمل والصبر وكأنهما دستور لا يجب الحياد عنه!

لم أتذمر عندما ضربني وكسرت يدي وتورم وجهي،

لم أشكو لأحد!

وقعت عن السلم كانت إجابتي للطبيب.

فوضت أمري لله عندما أجهضت طفلي بسبه لمّا ركلني على بطني فسبب لي نزيف داخلي أدى لانفجار الرحم، فحرمت من الأمومة !!

لم أعترض على قرار أهله بتزويجه من ابنة خاله لكي تنجب له البنين والبنات.

رضخت لكل الظروف أصبحت كخادمة له ولزوجته وأولاده..

تحملت كل المحن وابتلعت جميع الأوجاع وتجاهلت هجرانه لي ونسيانه عيد ميلادي، كلامه الجارح إهاناته..

ولكن ذلك اليوم لم اتحمل ذلك الإهمال،

أن ينسى صلصة الطماطم التي أوصيته عليها!!

أظنه شيئا جلل!

لم أندم على قتله البتة ولن اندم!

لأنه الأمر الوحيد الذي فعلته طول حياتي من أجلي لأنني أنا من أراد ذلك.

مسكين جدا ذلك المحامي، لم يتساءل لماذا طعنته

أربعة وثلاثون طعنة؟؟

نعم قصدت ذلك مع سبق الإصرار والقهر!

كل طعنه كانت تعبر عن سنة من عمري،

اليوم عيد ميلادي الأربعة والثلاثون..

أستطيع الآن الإحتفال بعيد ميلادي

وأنا سعيدة جدا!!

***

غربة وخيبة

ترهقنا مشاعرنا الهزيلة عندما تخذلنا الإختيارات، تجهض جميع أحلامنا على أرض قحلاء أصيبت بقحط عندما عصفت بها أنفاس الحسرة والندم..

تغربلنا الحياة بغربال ذو ثقوب صغيرة تخرج منه الخيبات ببطئ مميت!

" يا إلهي لا أصدق أنك ما زلت كما عهدتك منذ زمن متانقة وذات طلة أنثوية! "

هكذا بادرت مريم الحديث عندما التقت بصديقتها رهف التي لم تلتق بها منذ ما يقارب العشر سنوات.

تغيرت ملامح رهف لمجرد رؤية مريم أصبحت تعابير وجهها تنم عن ارتباك ودهشة!

تقدمت مريم دون سابق إنذار لاحتضان صديقة عمرها وبعد الانتهاء من الإحضان والسلام والاطمئنان وكيف حال الأولاد،

" أتعلمين أنك صديقة لئيمة!

كل هذا الوقت لا أعرف عن أخبارك شيئا، حاولت الإتصال بك مرارا على رقمك الموجود لدي ولكنه دائما يكون خارج نطاق الخدمة! "

أجابت رهف:

" أنا بخير الحمد لله، "

وأردفت: " معك حق لا أنكر أنني مقصرة معك وانقطعت عن الاتصال بك، تعلمين الحياة ومشاغلها. "

كان صوتها يتخلله التصنع والتلعثم ووضعت يدها على بطنها وكأنها تحاول إخفاء شيء!

صرخت مريم: " واو لا أصدق، لم ألاحظ، أنت حامل!! "

" إعذريني انشغلت بالعتاب ونسيت أن أسألك عن آخر مستجداتك.. "

" كل شي على ما يرام تزوجت للمرة الثانية وها أنا حامل بتوأم وأولادي من زوجي السابق يقضون أوقاتهم ما بيني وبين والدهم. "

" شي جميل جدا كم أنا سعيده لأجلك

ومن هو سعيد الحظ يا ترى ؟؟؟ "

إرتعشت رهف، تململت، كانت تدعو الله أن يخرجها من سيل أسئلة مريم.

وبصوت مرتجف اعتذرت منها لأن عليها الذهاب الآن بسبب موعدها لدى الطبيب.

اقتربت منها وحضنتها وودعتها على عجل.

كانت تمشي بخطوات مسرعة تريد الابتعاد قدر الإمكان عنها!

إستغربت مريم تصرفاتها وعللت ذلك بأنها يجب أن لا تتاخر على موعدها مع الطبيب.

تذكرت فجأة أنها لم تأخذ رقم هاتفها الجديد!

إبتسمت بعفوية ربما سألتقي بها ثانية قبل عودتي من الاجازة.

حيث قررت بعد غربة عشر سنوات أن تزور مسقط رأسها لتقضي إجازة الصيف مع أهلها.

لا نعلم كيف نجمل أرواحنا بعدما أصابها توهان بدروب الخذلان، نحاول جاهدين أن نخفي وراء ابتساماتنا الشاحبة وجع وخيبة..

تشرد وهي بين الحضور تسافر أفكارها هناك حيث قضت نصف عمرها غريبه الأهل والمشاعر والذات كيف فشلت بزواجها عندما قررت طلب الطلاق لأنها اكتشفت أنها لا تنجب!

كان قرارًا مؤلمًا رغم عقلانيته، رفضت أن تبقى تحت تهديد أو خوف ربما ذات يوم سيطالب بحقه أن يكون أباً وحتما سيقرر حينها الزواج بأخرى!

فضلت الإنسحاب بهدوء.

حاول ثنيها عن قرارها، وأكد لها أنه مكتف بها.

لم تتردد الحث على طلب الطلاق.

سافرت بذكرياتها إلى ذلك اليوم وكيف حاولت أن تتماسك، تمنع دموعها من الإنحدار وهو يرمي عليها يمين الطلاق!!

خرج دون أن يلتفت، يداري ضعفه وخذلانه، رضوخه لطلبها كان لأن رغبته أن يكون اباً أقوى من حبه لها..

" مريم مريم ما بك شارده نحن هنا! "

أعادها صوت شقيقيها، وبصوت مرتبك أجابت:

" لا شيء فقط سرحت بعض الشيء وتنهدت بحسرة وحزن. "

إقتربت منها شقيقتها لتحضنها تخفف عنها عبأ أوجاعها،

" هيا لا تعذبي نفسك، إتفقنا أنك هنا بأجازة وسننسى الماضي بكل أحزانه،

لدي خبر سار لك! "

حاولت شقيقتها أن تغير مجرى الحديث.

سألتها مريم بفتور وعدم مبالاة:

" ما هو ؟؟ "

أجابت شقيقتها:

" يوم الأحد القادم نحن مدعوين لحفل زفاف صديقتي وطلبت مني أن أدعوك أيضا، أظن أنها فرصة رائعة بها تغيرين جو الحزن الذي أنت فيه وفرصة أن تلتقي بصديقاتك القديمات. "

" وما دخل صديقاتي القديمات بصديقتك؟ "

" لأن صديقتي تكون أخت رهف! "

إبتسمت مريم هل أنت جادة؟ يا إلهي كم أنا مشتاقة لأرها. "

وقصت على شقيقتها ذلك اليوم الذي التقت بها صدفة عندما كانت تتسوق.

وسألتها: " هل تعلمين بمن تزوجت ؟؟ "

أجابت شقيقتها:

" لا أعلم شيئا عن زوجها سوى أنه مغترب أيضا ويأتي بالاجازات ليكون معها. "

إنفرجت أسارير وجه مريم وتحمست لفكرة شقيقتها وكأنها تعلن أنه آن أوان خروجها من غربتها.

" سأذهب معك لحفل زفاف صديقتك! "

صرخت شقيقتها وحضنتها بفرح.

" كم أحبك يا أجمل أخت بالعالم! "

ما أصعب أن تضعك الحياة عند نقطة البداية ساعة الصفر.

تعود إلى ذلك الجرح الذي ظننت أنك شفيت منه!

وبمجرد أن تلامسه رياح الماضي تكتشف أنه مازال مفتوحا بعد اعتقادك أنه التئم..

دخلت مريم وشقيقتها قاعة الزفاف متأخرين بعض الشيء وبعد بحث ليس بالقليل وجدو طاولة بعيدة بعض الشيء عن المقدمة حيث يجلس العروسان.

" سأذهب لألقي السلام على العروس وأبارك لها هل تأتين؟ "

أجابت مريم: " ليس الآن، إذهبي وسأبارك لها فيما بعد. "

جالت مريم بنطراتها ما بين الحضور علها تقابل بعض من صديقاتها القديمات ولكنها لم توفق وربما لم تتعرف عليهن بعد هذه المدّة من الزمن، " أكيد تغيرت ملامح بعضهن. " أسرت لنفسها.

أصابها ملل وضجر، نهضت من مكانها تبحث عن شقيقتها ما بين زحام المدعوين،

وبينما هي تمشي بخطوات حذرة تخاف أن تصتدم بأحد،

لمحت رهف تقف بجوار إحداهن، تقدمت متلهّفة تحاول مفاجأتها!

إقتربت منها أغمضت عينيها تحاول أن تدعها تتحزر من هي، تلتفت رهف لتجد مريم أمامها مبتسمة،

" أخيرا عثرت عليك، والآن لا يوجد لديك أي عذر لنثرثر قليلا لا تعلمين كم أنا مشتاقة لك و لأحاديثنا وذكرياتنا.

أصيبت رهف بصدمة لا تنطق بشيء فاغرة فاهها كخرساء!

" هيا أخبريني عن عريس الغفلة، من هو، وكيف تعرفت عليه، وهل أنت سعيدة معه؟ أريد أن أعرف كل شيء!! "

حاولت رهف أن تتكلم وتجيب، تجبر حنجرتها على الكلام ولكن الكلمات خانتها..

نظرت رهف للقادم من زاوية الصالة يلوح لها زاغت نظراتها، إرتجفت أوصالها، إزدادت خفقات قلبها،

تقدم ناحيتها اقترب أكثر حتى أصبح خلف مريم!

" لن أسمح لأحد بأخدك مني اليوم، أعتذر سيدتي هل تسمحين أن أخطف زوجتي منك؟ "

إلتفتت مريم للتأكد من الصوت ظنا منها أنها تتخيل أنها سمعت ذلك الصوت من قبل..

إرتبكت رهف، ارتبك هو،

تسمرت تجمدت مريم اصبحت تتلاشى!!

وكأن قدميها غاصت برمال متحركة تسحبها نحو الأسفل..

وألف سؤال وسؤال يضج بذاكرتها،

كيف حدث ذلك؟؟

ورهف من كانت تشجعني على

قرار الطلاق!!!

***

ذات غفران

دائما ما نقف على مفترق طرق يصعب الإختيار.
ولأن كل طريق لها خطوات خاصة،
نرتبك ونصاب بالتشتت والتوهان.
كأن تحتار ما بين أحب الأشياء لقلبك وأجمل الأشياء إلى روحك..
تبقى أحجية الحب معقدة مربكة، كمرض مزمن يكاد يكون سرطانا من نوع آخر!
تتعبنا وترهقنا مشاعر الحب نحاول حل الأحجية نفشل ونحاول من جديد وبكل مرة يأكلنا الوقت تهرم أروحنا ونحن نبحث عن حلول وإجابات.
ودائما الجواب النهائي لا يوجد حل، فيكون الفراق!

اِسمي عبد الكريم شاب تجاوزت ربيع العمر بقليل،
ولكن فيما يبدو ربيع عمري كان قاحلا أصابه القحط!
لم تزهر براعم احلامي ولم تنمو زهور أمنياتي

كأي شاب من شباب هذه الأيام تعرفت على فتاة من خلال " الفيس بوك "
كان تعارفًا عاديًا لا يخلو من الصداقة، ومع مرور الأيام والأشهر حتى تحوّل هذا التعارف إلى إعجاب ومن ثم حب حد الجنون!
مرت علينا جميع مراحل الحب والعشق والغرام،
وتوالت الأشهر لسنة، والسنة لسنوات..
ونحن نحلّق في عالم العشق،
تناسينا المسافات والحواجز،
وجميع ما يمت للواقع بصلة!
وتجاهلت أنا بالذات أنها مطلقة وعندها أولاد لم يكن بالأمر الجلل بالنسبة لي، حتى فارق العمر فيما بيننا، حيث كانت تكبرني بنصف عمري ومع ذلك استطعت أن أمتلك قلبها وروحها. لم تمنعنا كل تلك العوائق من التقدم وحتى من حلم اللقاء، كان حلم مشترك!
تعمقت داخلها وأصبحت تثق بي، حدثتني عن ماضيها وحاضرها وحتى أحلامها المستقبلية.
كنت لها مستمعًا جيدا لم أخذلها طرفة عين.
نتخاصم ونتصالح ونعود كما كنا من قبل بل أكثر حبا وشوقا.

لم يعكر صفوفنا سوى تلك الحالة التي كانت تمر بها بين الحين والآخر.

تطلب الرحيل وتصر على طلبها تفتعل مشكلات لا داعي لها!

في بادئ الأمر كنت أتقبل ذلك التغيير المفاجيء أدعها تذهب ربما تهدء بعد قليل وتعود لمحادثتي أختلق لها أعذار وتبريرات، لا أريدها أن تبتعد عني.

فتغيب ثلاثة أيام وبمجرد أن أكتب لها تعود ملهوفة ودموع الشوق تخنقها..

تعودت على ذلك التغيير وكل مرّة تختلق سببا، أعاندها فأترجاها أن تبقى ولكن دون جدوى،

مع مرور الوقت تأقلمت ترحل وتعود ترحل وتعود!!

إلى أن حدث في مرة من المرّات أن أرادت الرحيل وأنا أرجوها أن لا تفعل ولكن لا حياة لمن تنادي،

أصرت ذلك الإصرار الغير معتاد ولم تقف عن هذا الحد بل تجاوزت حدودها فجرحتني بأسلوبها الفظ وكلماتها القاسية..

لقد مللت من علاقتنا وتعبت من الحب،

الحب متعب ومهلك حد الموت..

مازلت أسمع صدى تلك الكلمات

وكان لها ما أرادت، كالعادة حاولت معها مرارا بعد ثلاثة أيام ولكن دون جدوى صدت محاولتي

ولكن لم استسلم حاولت مرة تلو المرّة،

ورسائل،

" اِشتقت لك، "

و" أحبك "

تملاء جميع وسائل الإتصال التي نتحدث من خلالها.

رجوتها العودة وأنني بحالة مزرية!

أصابني المرض والإحباط والاستسلام..

كنت ضعيفا هشا مهزوما!

لم تحلو الحياة بدونها وكان كل شيء بالأبيض والأسود، بهتت جميع مشاعري حتى أهلي لم أعد أجلس معهم. إعتزلت الجميع باستثناء عملي أذهب إليه كمبرمج، تحاشيت الجميع فكانت عزلتي تنحصر ما بين السؤال والإنتظار.

وهاجسي الوحيد كيف سأعيدها.

كم نحن بارعون بالادعاء والكذب،

كانت سلوتي الوحيدة أننا ما زلنا نتواصل بالكتابة كل حين وحين أسألها عن حالها وكيف هي

فتجيبني
أنها بخير.
لم أصدقها وأنا أعلم أنها ليست بخير!!
يا لقدرة الحب تصلنا المشاعر رغم بعد المسافات!
لا أعلم إلى الآن كيف ينتابني القلق عليها وأشعر إن كانت بخير أم لا،
ومع ذلك لم أستطع عمل شيء.
كم صعب أن تكون مقيدًا بالمسافات.
إحترمت رغبتها بعدم الكتابة لها مجددا وانسحبت على أمل أن تعود.
وذات يوم كنت بعملي، وإذ بها تكتب لي تريد الحديث معي.
كاد قلبي أن يخرج من مكانه،
فقط مسافة قراءة رسالتها،
فكان اتصالي سريعا.
لم أسمع صوتا بل كان بكاءً!
طلبت منها أن تهدأ وتكلمني بهدوء لأفهم الموضوع.
حاولت أن تتوقف عن البكاء وبدأت تكلمني بصوت متحشرج ببكاء متقطع..
إهدئي يا حبيبتي ها أنا معك وجانبك لا تخافي.

فقط أخبرني ماذا حدث،
كان صوتها يرتجف وكأنها محمومة،
لقد خنتك سامحني!!
لم أستوعب الكلمات ولا حتى الحروف وكأنها أبجدية جديدة لغة مختلفة.
وكأن كلمة الخيانة لم تمر على رأسي، ربما لم أقرأها يوما ما.
سمعت بالخيانة وقصص أشكال وألوان عنها،
ولكن كنت أظن أن الخيانة غير موجودة بقواميس عقلي وقلبي وروحي كنت أحتقر كل خوّان
رغم كل شيء.
الظروف المسافات الحواجز والمجتمع..
إلا أنني لم أفكر يوما بخيانتها حتى بالنظر لأخرى لأنني أعلم أن ذلك سيغضبها.
أحترمها بوجودها وغيابها حتى عندما ترحل ورغم طلبها أن أعيش حياتي.
لا أرى سواها، ليس خوفا أو لأني مجبرا بل حبا وعشقا لها!
أظن في ذلك الوقت ابتلعت لساني أو فرت الأبجدية بحروفها جمعاء من عقلي.

حاولت أن تتكلم ولكن دموعها كانت أسبق.

تمتمت بصوت مخنوق:

" سامحني أرجوك! "

لم أسألها لماذا فعلت ذلك، لم يعلو صوتي عليها.

حتى أنني لم ألمها، كانت الدموع بعيناي متجمدة،

و امتلكني غضب هائل

فاخمدته كلماتها،

" أنا أحتاجك لا تتركني! "

لم أفكر ولم أخطط،

كل ما أحسست به بتلك اللحظة

أنني احبها حد الغفران...

***

قولوا آمين

(إستوصوا بالنساء خيراً)،

كان هذا ختام خطبة الجمعة

ودعاء والجميع يأمن وراءه.

أقيمت الصلاة ورتل بعضاً من أيات الذكر الحكيم بصوت عذب وشجي كل من سمعه أصابه الخشوع وبعضهم أدمعت عيناه.

إلتفوا حوله يسلمون عليه ويهنئونه لتوصله درجات العلم والمعرفة ودروسه الرائعة وتفرغه للدعوة وترغيب الناس بالإسلام.

ولا يخلو الأمر من أن يستفتيه أحدهم بأمر من أمور الدين.

جميعهم مبهورين به منصاعين لمواعظه، ينطق درراً وكانت النسوة من أشد المعجبات به

حاولن التودد والتقرب إليه بشتى الطرق.

منهن تسأله حكم نزول الدم

بعد انتهاء فترة الحيض هل يجيز لها الصلاة،

حتماً سيجيب سؤالها فلا حياء بالدين!

وأخرى تسأله

إن امتنعت عن مجامعة زوجها هل تأثم؟!

وأغربهن من عرضن عليه أن يتزوجهن!!

وكل ذلك وشأنه يعلو في عنان الدعوة والتقوى، أفواجا من ديانات أخرى نساء ورجالا شابات وشباب دخلوا دين الإسلام من خلاله ونطقوا الشهادتين بحضوره.

علا صيته أكثر وأكثر، مجدوه، وطمع بعض الأباء والأمهات به زوجا لبناتهن رغم علمهم أنه متزوج وعنده أولاد!

وكيف لا وأمثلتنا المتوارثة تحكمنا وأشهرها:

(إلي بخاف من الله لا تخاف منه)

نقي كنقاء عباءته البيضاء وورعٌ

بحطته البيضاء والمكوية بعناية فائقة

زاهد بالحياة بلحيته العشوائية التي تكاد تصل لمنتصف صدره والمخصبة بالحناء اقتداء بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

يوزع على الجميع إبتساماته وحديثه اللبق وعلامات الوقار والزهد تغزوا ملامحه.

هنيئاً له بالجنة سيدخلها من أوسع أبوابها، وهنيئا لزوجته وأولاده برجل جل همه إرضاء الله ورسوله، كلام يتناثر من هنا وهناك،

متأثرين بكل شارده وواردة منه.

جاءه شاب من بعيد وقال له أمام الجميع:

" شيخنا يوجد امرأة خارج المسجد تسأل عنك ولا تريد الدخول. "

أصاب بعضهم الفضول والحشرية ورافقوه ليستطلعوا ما الأمر.

وعلى مدخل المسجد كان هناك امرأة أربعينية تدخن سيجارة بكل وقاحة، وبجانبها ثلاث فتيات بعمر الزهور جميلات تكسو بعضهن ملامح الغرب ذات جمال رباني..

مكشوفي الرأس ولباسهن لا يستر سوى أجزاء صغيرة من أجسادهن، يكاد المرء أن يشك بأنّهن مسلمات،

عندما اقترب منهنّ تغيرت ملامح وجهه!

وذهب الوقار والزهد وحلّ محلهما الصدمة والارتباك!

تجمع الناس حولهم يستفسرون عن الأمر..

خاطب الناس بهدوء متصنع دعونا وحدنا إذا تكرمتم!

ولكن المرأة رفضت وقالت بإصرار وثقة:

" أريد أن أسألك سؤالا يا شيخ وأمام الجميع

عن حديث للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام،

(إن من كان لديه ثلاث بنات وأحسن تربيتهن دخل الجنة من أوسع أبوبها).

هل هو حديث صحيح او حديث ضعيف؟؟؟ "

تجمهر الناس حولهم وعيونهم تلمع بالسخرية من هذه المرأة وسؤالها البسيط للشيخ، كانوا واثقين أنه سيجيبها بكل طلاقه وسهولة.

أخفض الشيخ رأسه يتحاشى النظر إليها وإلى بناتها السافرات، وحاول الإنشغال والتّهرب

وكأنه يدعو الله أن يحلل عقدة لسانه ويخرجه من المأزق المخجل الذي لا يحسد عليه..

تلاقت عيناه بعينيها ونصف ابتسامة خبيثة ارتسمت على شفتاها.

تطاير الشرر من عينيه وكأنه يتوعدها أنها ستنال عقابها المعهود!

وتدارك لعقلها كيف سيعود إلى البيت وسينهال عليها بالشتائم والإهانات المعتادة وأنها امرأة غير مسؤولة ولن يخلو الأمر من ضربها وصب جام غضبه على بناته وأنه لا يريدهم لأنهم يسببون له الإحراج ويشوهون سمعته أمام الناس!

وبأسلوب لبق انسحبت وقالت يبدو أنك منشغل شيخنا،

لا عليك ربما تجيبني على سؤالي بوقت لاحق. وطلبت من بناتها أن يسلموا على الشيخ المبجل، وأن يدعو لهن بالهداية.

***

هدوء بنفسجي

يثنينا التردد ويقلقنا الفشل.
تحبط عزائمنا في لجة صراع بين المغامرة وما بين التروي.
الجنون سر الحياة!
نعيش على قيد نبض رتيب مستسلم للبرود.
صقيع يحيط بأرواحنا في متاهات الواقع،
نتألم بصمت وننوح على خاصرة الوقت،
ندعي بأننا بخير وكل شيء على ما يرام.
نغترف من الصبر مسكنات ترمم ثقوب الماضي..
تتأفف مشاعرنا الخصبة، تتمرد حين صمتٍ صَدِئ
تفور فوق السطور،
تنزف حروفاً تتجلى كلمات وجمل تجلد الأوراق بسياطها.
وتحت وطأة بوح حر،
تولد قصائد مرهقة القوافي وروايات وقصص قابعة في محراب الذاكرة!

" أريد ولدا منك .. لا لا .. بل أريدك أما لأولادي،

لن أتزوج سواك، أنتِ من أريد أن أقضي ما تبقى من عمري معها! "

نظرت إليه مصدومة غير مصدقة ما تسمع، طربت لتلك الكلمات مذهولة مبهمة المشاعر!
بعد كل هذا الوقت، الزمن، المسافات، والإنتظار
قرر أخيرا
أنه يريدني زوجة وأما لأولاده!!
كانت الفرحة تغمرها سعادة وعنفوان
كطفلة عاشت اليتم ما عاشت، وعندما كبرت إكتشفت أن والدها حي يرزق!
لم تسأله إن كان متأكدا أو أنه يقول هذا الكلام لأنها قررت الرحيل، نسيت ذلك القرار وتلك الكلمات حتى ذلك الشوق المقيد بالمسافات الذي أكل روحها،
وكأنه بقراره هذا امتلك ما تبقى منها أو أنقذ ما يمكن إنقاذه!
وحين غفلة عن مشاعرها وبزمن غير ذلك الزمن
تذكرت ذلك السر الذي حاولت جاهدة أن تخفيه عنه وكيف أنها مريضة بذلك المرض الخبيث وأن أيامها معدودة!!

إنفعلت وهي تحدثه، إستنكرت، تأججت نيران اللوم بعقلها وهبت عواصف الحسرة بقلبها، تلاحقها الخيبات وتكسرها الصدمات و يتربص بها خسران يتلوه خسران!
وكأنها ولدت لتكون خاسرة..

إنتفضت غضبت صرخت،

" لم الآن؟ ولماذا هذا الوقت بالتحديد؟
أين كنت مني عندما
ترجيت تذللت ناشدت توسلت لك
لا أريد شيئا من الدنيا إلاك!
أتعتقد كان هذا سهلا وأنه ليس لدي كرامة؟
لم يكن سهلا صدقني،
جرحتني!
جرح مازال ينزف على قارعة عهودك المؤجلة
رفضك كان قاسيا مميتا..
ورغم ذلك إختلقت لك
ألف عذراً وذنب مغفور في غياهب عشقي لك،

تجاهلت تناسيت ورضخت لسطوتك،
لقد فات الأوان حبيبي..
لن أتراجع عن قرار الرحيل! "

" لن أدعك ترحلين سأخطفك وأتزوجك بالقوة!! "

يا لقسوة الحياة ويا لسخف الزمن،
تأتينا الأشياء المناسبة بالوقت الغير مناسب..
دائما ما كانت تتمنى أن تسمع هذه الكلمات حتى لو كانت كذبا..

" أعتذر حبيبي لم أعد كما كنت! "
خرجت غير مودعة ودموع تنحدر على وجنتيها لا تعلم سبب بكائها، هل على عمر ضاع بالانتظار أم على خسران حب قيد المستحيل!!

يقتلنا الحنين وتميتنا الأشواق، نستغرب كل ذلك التعلق بشخص التقينا به بمحطات الصدف،

ترهقنا مشاعر مشتتة تائهة بطرقات الوهم تفصلنا عن الواقع، تغيبنا في مساحات الخيال نبني بيتا من السراب ونصنع أطفالا من صلصال الأمنيات
ننثر عليها أحلامنا علّها تتحول لواقع يوما ما!!

كانت تشعر بالبرد تصطك أسنانها ترتجف وترتعد أوصالها بحمّى الفراق وما أدركما حمى الفراق.
تحاول أن تهدأ نفسها، تندثر تحت ركام الذكريات تجتر صدى صوته علّه يصبرها على لهيب الشوق.
تحذف رسائله دون قرائتها لا تريد العودة
لجنة عينيه. نار بعده أفضل من قرب مهلك!

نداري فشلنا نقبض على فتات أرواحنا بأيدي واهنة نحاول أن نتدارك الوقت، نتحايل على الزمن نهرول في طرقات السراب
ربما يسعفنا الحظ بضربة جزاء،
وإن لم نفلح
نطلب وقت إضافي لنحرز هدف الإنتصار!
لا يعجبنا التعادل!!

كانت متعادلة معه حين رفضت إحتجّت تمردت ثارت!
كانت مطمئنّة ويغزو روحها
هدوء بنفسجي!!

ولكنه لم يستسلم طلب وقتا إضافيا
ليرفع راية النصر في معركة هزيمتها
كبرياء وعناد وإصرار على التملك!!
إستمرت محاولاته لم يستسلم،
يحدث نفسه مرارا
" ستعود لي حتما لن تتركني أعلم أنها تحبني
حاول آلاف المرات الإتصال بها.. ولكن دون جدوى.

يلدغنا الزمن بمفاجئاته فتحدث ثقوبا سوداء تترك أثرا وندوبا تشوّه مشاعرنا وأرواحنا الشاحبة.
تذكرنا بخذلاننا لأنفسنا قبل خذلاننا لمن أحببناهم.

" لا يعقل أن تتركني أعلم أنها تنتظرني أعلم ذلك! "

يحاول الإتصال بها آلاف المرات،
ليخبرها أنه يريدها زوجه وحبيبة وأنه واثق بأنها ستكون أفضل أم لأولاده، حتما سيبدون نسخة منها وسيحبهم حبا مضاعفا لأنهم أولاده ولأنها والدتهم!

يحاول من جديد
يتصل وأخيرا يأتيه
صوتا من الطرف الآخر
ولكنه ليس صوتها،

" أريد الحديث معها أرجوك أخبريها أنني مشتاق لها،
وأن حياتي لا معنى لها دونها.
أريد أن أعتذر لها، أسمع صوتها أريد أن أخبر... "

يقاطعه الصوت من الطرف الآخر
" فات الأوان،
لقد ماتت اليوم صباحا!
لم تتوقف عن ذكر اسمك لاخر نفس!! "

توقفت الكلمات وعلقت الأبجدية بحنجرته
فتسلل لروحه صمت رمادي!
وقع الهاتف من يده ووقع قلبه أسفل قدميه
أصبح خاويا من كل شيء،
تهاوى على الأرض ينتحب فقدان قلبه

على رصيف الندم!!

***

مع الأسف

أهدي هذه القصه القصيره لأهل مخيمي المحتضر على قارعة الأسف!

من بين الأنقاض إستطاعت أن تنقذ دميتها التي أهداها إياها والدها وهي في الخامسة، حيث وعدها وبر بوعده.

نظرت إليها ودمعة مع ابتسامة انحدرت وشكلت خطوط متعرجة على وجنتيها

حضنتها وهمست: " لن اتركك وحيدة بعد الآن! "

كان هناك في أقصى الحارة المدمرة وفود وصحافيين

وكان يترأس تلك الوفود ذلك الرجل ذو البذلة السوداء!

يهز رأسه تارة وتارة أخرى يعلق ببضع كلمات مقتضبة.

تذكرته جيدا عندما بدأ بالاقتراب ناحية ركام منزلها حيث تحطمت أحلامها تحت انقاضه..

إنه ذلك الرجل الذي أخذها والدها لانتخابه عندما كانت بالرابعة عشر من عمرها،

سألته حينها لما تختار هذا الرجل ولا تختار الآخر

رد عليها وقتها أنه أقرب للناس يفهم معاناتهم،

وفي وقت الحرب يعلن أسفه لما يحدث!

اِغرورقت عيناها بالذكريات لتنهمر سيولا من حزن.

تذكرت عندما جاء مع وفوده وعبر عن أسفه أثناء مراسم دفن والدها الذي قتل وهو يهتف بإسمه ويشجع الناس على انتخابه!

أفاقت من هطول أمطار الوجع على صوته يسألها،

" هل هذا منزلك ؟؟ "

نظرت إليه والحقد يملأ روحها:

" كان منزلي وشكرا مسبقا على أسفك، نهضت من مكانها محتضنة دميتها وذهبت شاردة تمتم لها:

" لاتخافي، كل شيء على ما يرام. "

***

موسم الكرز

تنهال ذكريات الطفولة

كإنذار قبل اندثارها بذكريات الوجع.

تتوالى صورا متقطعة مبهمة،

ينتاب بعضها الشحوب والغباش،

والبعض الآخر واضح وجلي.

كتلك الذكرى عندما كنت في العاشرة من عمري،

كان موسم جميع فاكهة الصيف وموسم الكرز

وذلك لحبي الشديد لتلك الثمار.

وكالعادة أمي تمنعني من أكلها لإصابتي بحساسية الربو.

إن أكلت منها أصاب باختناق وضيق تنفس فيركضون بي إلى المستشفى.

ولشدة عنادي لا أسمع كلام والدتي، وأختبىء في مكان منعزل وآكل بعض حبات الكرز خفية

وأصاب بالنوبة مباشرة، وتعلم والدتي بعصياني كلامها!

ولكن هذه المرّة كنت واعية بما يكفي، عشر سنوات، لا بأس من كون المرء مدركا وواعيا.

جاء موسم الكرز كالعادة وتعليمات والدتي تتكرر لا تآكلي الكرز ستصابين بنوبة الربو أصبحت واعية ومدركة لما يؤذيكي.

وأصّرت على موقفها ولكن هذه المرّة لم تخبأ الكرز وإنما جعلته أمامي لكي يكون القرار نابعا عن أرادتي.

نظرت إلى الكرز متحسرة وذهبت حيث والدي يجلس فوق سقف منزلنا، صعدت الدرجات وأنا حانقة على أمي والكرز!

سألني والدي ما بك لِما رَآه من علامات الغضب البادية على وجهي،

قلت له لا شيء.

وجلست في زاوية بعيدة بعض الشيء عن والدي وقد كان معي بعض الأوراق وقلم،

ولا إراديا بدأت أكتب..

في البداية كتبت اسمي والتاريخ،

وكتبت عنوانا،

" أنا أكره أمي! "

كان أول بوح لي للورق، وكانت أول حروف وكلمات أخطها والغضب يملؤني.

لاشعوريا بحت للورق بكرهي الشّديد لأمي!

أكرهها كثيرا حينما تخاف علي وتخنقني بحرصها الشديد!

دائما تعليمات وأوامر ونواهي، لا تعرف كم أحاول جاهدة أن لا أصاب بنوبة الربو، وكم أحرم نفسي الكثير من الأشياء لخوفي من الاختناق!

أصابني التحرر وبعض من الهدوء حينما كتبت بحرية مطلقة وختمت نهاية كتابتي:

" أنا أعلم أن والدتي تحبّني وتحب أن تراني سعيدة، وأعلم أيضا أنها تتألم لحالي ولا تستطيع أن تمدّ يد العون لي بشيء يؤذيني،

أنا لا أكره أمي، بل أكره موسم الكرز الذي

يجعل من أمي صارمة وقلقة حيالي. "

وبعد انتهائي من الكتابة نظرت حولي وإذ بوالدي ينظر ناحيتي ويتأملني بابتسامته الرائعة،

سألني ماذا كنت تكتبين،

إحمرت وجنتاي خجلا وأصابني الإرتباك وقلت بصوت منخفض:

" لاشيء مهم. "

ولكنه أصر وبإلحاح أن يعرف ماذا كنت أكتب.

فسألته: " لماذا تريد أن تعرف؟ "

قال: " لقد كنت أراقبك وأنت تكتبين، كانت ملامحك تتغير كل بضع دقائق وكأنك تكتبين ملحمة تاريخية،

لذلك أصابني الفضول وأريد أن أعرف ماذا تحتوي تلك الورقة. "

رجوته أن يعفيني ولكنه صمم أكثر وأكثر وتحت إصراره وخوفي من غضبه،

مددت يدي المرتجفة بالورقة ووقفت منكسة رأسي بخجل وخوف،

وما هي سوى دقائق قليلة وصوت ضحكات والدي تدوي عاليا!

فنظرت اليه لأستطلع ما الامر،

وجدته يضحك مقهقها

وعيناه مبتلتان بالدموع، ولم يتمالك نفسه من كثرة الضحك.

وبعد فترة وهدوء واستجماع لأنفاسه المتلاحقة،

فتح ذراعيه وحضنني بكل ما يحمل من حب وحنان

وقال لي موشوشا:

" أمك تحبك كثيرا

ولكنها لا تقولها نطقا بل تتصرف معكم بحب

لا تقسي عليها

ستكبرين وتعلمين ماذا اقصد. "

كبرت وموسم الكرز مازال يؤرق حياتي

إلى أن تحديت المرض وعودت نفسي

أن آكل الكرز دون أن أخاف من أنني سأصاب

بنوبة الربو.

ونجحت أخيراً!

ولكن مازال موسم الكرز يذكرني

كم كانت والدتي رائعة...

***

صدفة

تفتح صندوق البريد وتخرج بضع رسائل ومزيد من الجرائد والمجلات.

كعادتها كل يوم بعد عودتها من حرب البقاء على قيد الروتين.

تفتح الباب وتدخل منزلها المكون من خمس غرف ومطبخ وحمامان،

أول ما تفعله تتخلص من ثيابها وكأنها أثقال أرهقتها.

ترمي البريد على الطاولة، وتلبس قميص نوم خفيف يحررها من عبأ يوم شاق كسابقه من الأيام.

تعود من جديد تتفحص تلك الرسائل وتلقي عليها نظرة سريعة بعضها مهم والبعض الآخر أقل أهمية،

تبدأ بفتح الرسائل حسب الأهمية.

كان تلك الرسالة الأولى التي أربكتها وجعلتها تجلس متهاوية على أقرب كرسي قرأتها أول مرّة وفهمت محتواها ولكنها أعادت قرائتها مرة تلو المّرة للتأكد.

وفي المرة الأخيرة استوعبت وكان ما يلي:

" نحن من شركة اليانصيب، نود إعلامك بأنك قد ربحت مليون دولار،

ونرحب بك لاستلام الجائزة يوم الإثنين المقبل ويجبذ إحضار هويتك الشخصية للتعريف عن نفسك. "

لم تذكر أنها اشترت ورقة يانصيب يوما من الأيام.

ولكي تتأكد بحثت عن رقم الهاتف الموجود في الرسالة واتصلت،

جاءها صوت الموظف خشنا ومرهقا.

بعدما شرحت له ما جاء بالرسالة

" نعم سيدتي الرسالة صحيحة وقد ربحتي الجائزة الكبرى. "

شكرته وهي شاردة وأغلقت الخط تحاول جمع شتات أفكارها وكأنها تبحث عن جواب لسؤال مبهم الطرح والمعنى.

تنهض من مكانها مسرعة وتحضر حقيبتها،

تفرغ محتوياتها على الطاولة بطريقة عشوائية تبحث عن ورقة اليانصيب التي لم تتذكر أنها اشترتها،

وبين الأوراق وحاجاتها المبعثرة على الطاولة وجدت نصف ورقة يانصيب مجعدة

امسكتها وكأن قوى سحرية مجودة بها تذكرت وبوضوح ذلك اليوم عندما ذهبت لشراء الحلوى لصغارها

وعندما همت بدفع المبلغ تبين لصاحب المحل انه لا يملك الفكة لإعادتها لها

واقترح أن تأخذ ورقة يانصيب بالمبلغ المتبقي.

أخذتها على مضض، أخذ النصف الثاني وأعطاها النصف الأول

وطلب منها أن تملأ تلك الاستمارة باسمها وعنوانها بحال كانت ورقتها رابحة

وتذكرت كيف تأفأفت من الأمر وتذمرت من الإجراءات التي أخرتها أكثر من المعتاد.

تأملت الورقة جيدا وهمست بصوت يكاد يكون مفهوما:

" لقد ربحت الجائزة الكبرى فعلا "

وبرزت أسنانها عندما ارتسمت تلك الإبتسامة على شفتيها.

وتبعها بعد ذلك ضحكة ومن ثم ضحكات هستيرية، وعلا صوتها بأرجاء المنزل:

" لقد ربحت الجائزة الكبرى،

وكل ذلك نتيجة عدم وجود فكة! "

***

واقع رمادي

تجثوا الأحزان فوق ملامحنا تبعثر ما تبقى من فرح مصطنع.

تعب الحب وتململت المشاعر تحت وطأة المشوارعلى طرقات ملتوية.

وهن يسكن خوافقنا بمساحات الفقد.

على ناصية الحلم تهرب مشاعرنا كي لا يبددها الرحيل.

تهيم أرواحنا بمسافات الزمن يجهضها الواقع

على خاصرة الوقت!

" ليس لك إجازات منذ اليوم لدنيا نقص بالموظفين ونحتاجك لسد هذا النقص! "

كان المناوب الإداري يتحدث من وراء مكتبه، ويجلس ذلك الموظف البسيط حسن على كرسي قبالته

يستمع ويهز رأسه موافقا.

" ولكن سيدي أنا لم أحصل على إجازه منذ ستة أشهر!

أعتقد أن ذلك لم يدرج تحت بند شغل إضافي حتى راتبي لم آخذ عليه علاوة! "

" إسمع يا حسن أعلم أنك تتعب بعملك ومجتهد ولكن ميزانية المعمل لا تسمح بزيادة رواتب الموظفين، ولكن أعدك عندما تتحسن الأمور ستكون أول شخص يحصل على علاوته. "

ينهض المناوب الإداري من مكانه يستأذن من حسن ويشكره لتفهمه والتعاون معه وأنه الآن مضطر للمغادرة.

يرتبك حسن ويخرج وما أن يغادر المكان يبدأ بسيل من التذمر والشتائم،

" ميزانة المعمل لا تسمح تبا لهم ولكذبهم!

قضيت ما يقارب عشر سنوات والحال كما هو وعود وطلبات وأوامر وبالنهاية ماذا؟

لا شيء!! "

يمشي بخطوات رتيبه شارد الذهن يتصارع مع الأفكار التي تدور برأسه

وسؤال واحد يتمركز بالمقدمة:

" ماذا سأقول لها هذه المرّة؟ "

" أريد سلفة على راتبي أرجو منك الموافقة لأنني أمر بظروف صعبه. "

ينظر المدير ناحية يعقوب نظرة تعجب،

" ألم تقدم لطلب سلفه منذ شهرين تقريبا ؟؟؟ "

" أعلم سيدي ولكن ظروف الحياة قاهرة جدا والراتب الشهري بالكاد يكفيني مواصلات ومصاريف الأكل والشرب وسجائري طبعا، وببعض التقطير أستطيع شراء بعض الملابس مرتين بالسنة، بإمكانك القول كسوة الصيف وكسوة الشتاء. "

" حسنا سأنظر بالأمر إن كان يحق لك سلفة أخرى،

بإمكانك الذهاب لعملك الآن. "

يخرج يعقوب مهموما يرتسم الحزن على وجهه يتمتم:

" أرجو أن لا يرفض المدير طلب السلفة إنها فرصتي الأخيرة كي لا أخسرها. "

يدخل مكتبه ينظر بأرجاء المكان، يجلس على كرسيه يحاول أن يعود لعمله ولكن تفكيره وعقله بمكان آخر.

" ماذا حدث بطلبي الذي قدمته لك سيدي؟ "

ينتفض نائب المدير من مكانه ويتقدم ناحية إلياس مستفسرا عما يتحدث،

" أي طلب ؟؟؟ "

طلب التعويض عن تضرري بالمنشرة وكيف تم بتر يدي أثناء العمل! "

عاد نائب المدير خلف مكتبه جلس على كرسيه نافخا صدره:

" كل خير، بالأمس تحدثت مع المدير بهذا الموضوع،

فكتب لك شهادة تقدير ومنحك لقب العامل المثالي وأظن أنها جاهزة فقط تحتاج لتوقيع المدير العام وبهذا نكون أوفيناك حقك. "

هبّ إلياس من مكانه غاضبا:

" وماذا عن يدي التي بترت وعن التعويض المادي الذي أنتظره لكي أدفع تكاليف تركيب يد بلاستيكية؟؟

كيف لي أن أستمر بالحياة وأنا بهذه الحالة أخبرني أرجوك!! "

إهدء واجلس لا داعي لكل ذلك الصراخ، لا يوجد بند في عقد عملك ينص بالتعويض إذا اصبت أثناء العمل وأظن ما منحه إياك المدير ليس بالأمر القليل. "

نهض إلياس وهم بالمغادرة،

" أشكرك وأشكر المديلر على حسن كرمه. "

خرج من مكتب نائب المدير ووجهه ينقّط غضبا ووجع.

كانت الساعة قد تعدت الواحدة ظهرا، إنطلق حيث لا يدري هائما ساهما يتكلم بصوت مسموع وغصة بحلقه تكاد تخنقه:

" شهادة تقدير وعامل مثالي يا لسخافتهم ماذا أفعل بتلك الشهادة؟

هل ستعوضني عن يدي أم هل ستنبت يد أخرى لي؟

كم أمقت هذه الحياة الظالمة،

وكيف لي أن أرتبط بها وأنا مبتور اليد؟؟ "

يرن هاتف حسن يخرجه من جيبه ينظر إلى الشاشة،

" يا إلهي ليس الآن يا فاطمة، إخترت الوقت الغير مناسب لتتصلي! "

يجيب مرغما يحاول أن يداري غضبه:

أعلم سبب اتصالك حبيبتي، ستسألينني إن وافق المدير على إعطائي إجازة.. "

" أعلم أنه وافق لانني إشتقت لك كثيرا.. "

" إعذريني حبيبتي لم أقابل المناوب الإداري اليوم لم يأت للمعمل قيل لي إنه باجتماع مهم. "

" يا إلهي لا أصدق كل هذا الوقت ولم تحصل على إجازة إلى الآن، لقد تعبت حقا من الإنتظار. "

" ما بيدي حيلة صدقيني!

هل تعلمين بماذا أفكر سأهاجر خارج البلد لدي صديق يستطيع مساعدتي على السفر ولكن الطريقه بها مخاطرة كبيرة. "

" لا لا تخبرني إنك تنوي السفر عن طريق البحر إلا هذه الطريقة، لن أسمح لك أن تلقي بنفسك للموت!! "

" إسمعيني جيدا ليس أمامي سوى هذه الطريقة، لم يعد يهمني شيء، ما الجدوى من أن أخاف الموت وأنا كل يوم يموت جزء مني؟ "

" لقد قررت وتنوي السفر أعرفك عنيد وستذهب رغم اعتراضي على الموضوع! "

مجبر على ذلك يا فاطمة لا يوجد حل آخر غير هذا، سئمت الاستسلام والاستعباد.. "

تبكي فاطمة تغلق الخط دون وداع دون كلمات...

يتصل حسن بصديقه أمجد ويخبره أنه موافق على السفر بالبحر وليحدد له الزمان والمكان.

يجيبه أمجد:

" حظك رائع يوجد الأسبوع القادم قارب سينطلق الساعة الواحدة ليلا كن مستعدا. "

" لا عليك سأكون قبل الواحدة. "

يغلق الخط وكل ما في قلبه اجتاحه السكون!

" مساءك ورد وياسمين يا أجمل إمرأه بالدنيا. "

ترد عليه من الطرف الآخر:

" لقد تأخرت بالاتصال انتظرتك كثيرا حتى ظننت إنك نسيتني! "

" وهل يعقل أن أنسى حياتي، شمسي التي تنير دربي، وقمري الذي يزين سمائي؟ "

" على رسلك لا تتوهني بكلامك المعسول الآن وأخبرني ماذا حدث بشأن السلفة هل وافق المدير على طلبك

يا لي من أحمق لقد نسيت أن أخبرك أن المدير اليوم مريض ولم يخصر!

لا عليك حبيبتي سأكلمه غدا. "

" لا بأس هي عادتك الدائمة تصبرني ببضع كلمات. "

أريد أن أخبرك شيئا ولكن اسمعيني للآخر،

تفضل، أسمعك:

" سأهاجر من البلد وأنوي السفر ولكن... "

" نفس الموضوع القديم إياه تنوي السفر بالبحر، و تعلم علم اليقين أنني لم ولن أوافق عليه مهما حصل! "

" حياة أرجوك أعطني فرصه لأشرح لك هذه الطريقة مضمونة، لدي صديق يعرف شابا سيساعدني بالسفر. "

" لا أوافق ولن أوافق هل سمعت؟ "

تغلق الخط وصدى صوتها يزلزل ثنايا روحه...

سامحيني يا حياة لا أملك سوى هذا الحل يتصل بصديقه إيهاب يخبره أنه سيسافر بالبحر.

" حسنا يا صديقي أمهلني عشر دقائق لأتصل بصديقي أمجد وأستفسر متى يمكنك السفر. "

يرن هاتف يعقوب يرد متلهفا:

" أخبرني هل بإمكاني السفر قريبا؟ "

يجيبه إيهاب:

" هل تعلم أنك محظوظ؟ الأسبوع القادم يوجد قارب سينطلق الساعة الواحدة ليلا. "

يهتف يعقوب فرحا:

" شكرا لك يا أجمل صديق! "

يخبره إيهاب عن الزمان والمكان وأن لا يتأخر عن الموعد.

" لا تقلق يا صديقي سأكون هناك قبل الواحدة! "

يغلق الخط وصوت حياة وهي غاضبة لم يفارق عقله.

إعذريني يا حياتي،

أجبرني الزمن أن أجازف وأموت وأنا أحاول الوصول لحلم خيرا من موتي فاشلا..

" من أنا ؟؟ "

يسأل إلياس مغمضا عينيها بيده المتبقية!

" ما أغلظك، لقد انتظرتك كثيرا، شربت ما يقارب أربعة فناجين من القهوة وكوب عصير،

لما تأخرت؟ "

يلتف حولها فيجلس على الكرسي المقابل لها،

" سامحني ماريا، أعلم أنني تأخرت عليك،

أعتذر حبيبتي ولكن اليوم كان حافلا جدا!

تصوري نائب المدير لم يحضر اليوم يقولون أن زوجته مريضة! "

تكتشف ماريا كذبه، تحاول أن تدعه يعتقد أنها تصدقه ترسم ابتسامة واهنة،

" لا عليك حبيبي المهم أنك بخير ولا أرى داع لطلبك تعويض مادي لكي تركب يدا بلاستيكية أنا أحبك هكذا وكيفما تكون!

لقد أحببت قلبك وروحك وليس شكلك. "

يتأثر إلياس بحديثها، يقترب منها يمسك يدها يطبع قبلة حب وتقدير.

" ماريا أريد الحديث معك بموضوع. "

" تفضل حبيبي تحدث أسمعك. "

" هل تذكرين صديقتك هناء زوجة أمجد الذي أخبرتني أنه يعمل بالبحر ويساعد الناس على السفر؟ "

" نعم أذكرها ما بها ؟ "

" لا شيء حبيبتي أنا أفكر لو تكلمينها وتسأل زوجها ربما ساعدني على السفر وبهذه الطريقة أستطيع أن أتعالج بالخارج، وربما يصبح لي يدا إلكترونية تعوضني عن يدي التي خسرتها. "

" هل تمزح؟

تريد السفر عن طريق البحر؟

هل تعلم كم المخاطر والحوادث والغرق الذي يصادف البشر بتلك الطريقة؟

أظنك جننت لتفكر بأمر كهذا!! "

" وما المانع إنه أهون الأمور، لا تعلمين كم أعاني وكم أكره نظرات البشر إلي بتلك الشفقة والأسى،

أريد فقط أن يكون لي يد بديلة، لا يضر إنك كانت من البلاستيك او إلكترونية لا يهم، مجرد بديل ما يشعرني بقليل من الرضى.. "

تنظر إليه بحب وعاطفة تتزاحم المشاعر بقلبها نصف يوافق ونصف آخر يرفض الفكرة.

تتحشرج الكلمات بحنجرتها تهمس:

" أنا لن أوافق على فكرة سفرك عن طريق البحر ولن أكلّم صديقتي،

ولكن أستطيع إعطائك رقمها وتكلم أنت واسألها إن كان زوجها ما زال يعمل بالبحر ويساعد الناس على السفر.. "

أخرجت ورقة وقلم وكتبت رقم صديقتها هناء.

ونهضت من مكانها تداري سيل دموعها التي انسابت على وجنتيها تهرول مبتعدة عن المكان

دون الإلتفات لتودعه.

بقي إلياس متجمدا بمكانه لم يحاول اللحاق بها تنهد بصعوبة بالغة بلغ ريقه نظر إلى الورقة ووجد رقما وكلمة (أحبك)..

إنسابت دموعه على وجنتيه يبكي ضعفه، إلتقط الورقة وضغط على الهاتف بالأرقام، أتاه صوت هناء،

" من المتكلم ؟؟ "

" أعتذر سيدتي، " يجيب إلياس.

" أنت هناء زوجة أمجد؟ "

" نعم أنا هي، من أنت ؟؟ "

" أنا إلياس خطيب صديقتك ماريا، "

" أها تذكرتك، أهلا بك، عذرا ما سبب اتصالك؟؟؟ "

" أعتذر سيدتي أريد أن اتكلم مع زوجك بموضوع ما إذا أمكن أن تعطيني رقمه لو سمحت؟؟ "

" زوجي هنا بالبيت هل تريد الحديث معه الآن أم تأخذ رقمه وتحدثه لاحقا؟ "

" أفضل أن أتحدث معه الآن. "

" إنتظر قليلا "

يجيب أمجد من الطرف الآخر بعدما شرحت لزوجها من يكون:

" تفضل سيد إلياس بماذا أستطيع أن أخدمك؟ "

" علمت خطيبتي من زوجتك أنك تعمل في مجال السفر عن طريق البحر وتساعد من يريد السفر إلى الخارج. "

يجيب أمجد " نعم هذا صحيح. "

" لو تفضلت أريد السفر إلى الخارج وأنا جاهز، فقط عليك إخباري عن المكان والزمان وأتمنى أن يكون بالقريب العاجل. "

يجيب أمجد " أبشر سيد إلياس

يوجد قارب الأسبوع القادم سينطلق الساعة الواحدة ليلا. "

يجيب إلياس فرحا: " ممتاز وهذا ما تمنيت،

سأكون هناك قبل الواحدة. "

يغلق الخط، يعود إلى الورقة التي بين يديه يقرأ تلك الكلمة مرة تلو المرّة تلو المرّة، يتنهد بحرقة وحسرة يتمتم:

" ماريا حبيبتي أجبرتني قسوة الحياة على الرحيل ربما أعود إليك ثانية وربما لن أعود.. "

في خضم الحياة حيث الاختيارات مُرّة كمرارة الحنظل،

حين تجبرنا الظروف على اجتثاث جذورنا، نمشي بدروب لم نحلم يوما أن تطأها خطواتنا.

تنتهي أحلامنا قبل أن تتحقق، تندثر تحت أنقاض واقع مهشم مبهم الملامح.

على شاطئ بحر الأمنيات كانت جثثهما منثرة تحلق فوقهما نوارس منتحبة،

والبحر يهدر بأمواجه العاتية يرتل قصائد رثاء غير منظومة القوافي،

ترسلها ثلاث زهرات كل يوم عند غروب الشمس،

يأملن عودة أرواحهن على مرافئ الإنتظار...

***

حلم وأمنية

ما أجمل أن يكون لديك حلم والأجمل أن تحاول جاهدا لتحقيقه.

لكل منا بهذه الحياة أحلام وأمنيات ولكننا نركنها على رف التجاهل ونعلل أن القدر لم يتح لنا تحقيقها.

نتكاسل نتقاعص نتذمر، وبنهاية المطاف نرمي تلك الأمنيات والأحلام في سلة المهملات على مضض!

سئمت كونها امرأة عادية وأضجرتها تلك الرتابة، روتين وملل قاتل يجوب عقلها يحيط بها هدوء سقيم، لا شيء هنا سوى الفراغ يفتت مشاعرها ويبلد أحاسيسها.

ماذا بعد؟؟

تقتل الوقت باعتنائها بأولادها ومسؤولياتها بشئون البيت، تعلم في قرارة نفسها أنها أم وربة منزل ممتازة لا جدل بذلك،

ولكن ذلك الإحساس لا يفتأ أن يعاودها، إحساس بعدم الرضا أو شيء ما ينقصها، ربما في قرارة نفسها تعلم ماذا تريد..

مازالت تلك الأمنيات والأحلام مخبأة بدرج صغير في خزانة الذاكرة المكتظة بكراكيب الماضي،

لا تعلم هل مازالت كما هي أم أكلها سوس الإهمال. تنبش خزانة الذاكرة تبحث عن ذلك الدرج تفتحه يصدر صريرا مزعجا، تنفض الغبارعنه تخرج تلك الأمنيات والأحلام بعناية فائقة..

يصدر منها ضجيجا يبدد هدوء مشاعرها المتبلدة، تتقافز الأمنيات والأحلام إلى روحها تباعا تبث الحركة بجميع حواسها ترتسم على وجهها علامات السرور والفرح، تحدث نفسها ضاحكة لم لا وما المانع يمكنني فعل ذلك لا يمكنني أن أستسلم أكثر من ذلك!

تباشر برسم خطة لتحقق أكبر قدر تستطيعه من أمنياتها وأحلامها..

تكتب لائحة بالمهم والأهم والمتاح والصعب والمستحيل!

تصرخ دون قصد يا إلهي كم بسيطة أحلامي وكم جميلة أمنياتي، يا لغبائي كيف تغافلت عنها كل تلك السنون!

بقليل من العزم وكثير من الإرادة حتما سأحققها لا محاله.

طريق الألف ميل يبدأ بخطوة واليوم ستكون أولى خطواتي!

ذهبت إلى المطبخ وبدأت بإعداد تلك الحلويات اللذيذة والتي أجمع كل من تذوقها على جودتها ولذتها بدءًا من أولادها وصديقاتها.

كان الحماس يدب بروحها لا يشغل بالها شيئا سوى إعداد تلك الحلويات. تسكب جميع مشاعرها بكل خطوة تضيف مع المقادير كل أمنياتها أحلامها، جنونها!!

وكأنها بذلك تنقل عدوى تحقيق الأحلام لكل من سيأكل منها.

تدللها وكأنها تفهم، تحدثها بصوت مسموع والآن حان وقت وضعك بالفرن!

تخرجها بعدما تنضج، يتوافد أولادها إلى المطبخ حينما تداعب الرائحة الذكية أنوفهم

يحاولون سرقة بعضها، تنهرهم لأنها ساخنة لا يستطيعون صبرا، يغافلونها فيسرقون ما تيسر لهم سرقته!

تخبز المزيد والمزيد من تلك الحلويات تكاد تكفي لجيش من الأطفال!

يلاحظ أولادها ذلك الكم الهائل من الحلويات وتلك الحماسة البادية على والدتهم،

يسألونها عن الأمر

فتضحك بسعادة

" هل تذكرون عندما حدثتكم عن تلك الأمنيات والأحلام وأنني أريد أن أكون صاحبة أكبر متجر حلويات ويكون لدي بكل مدينة فرع ويتهافت الناس لشرائها!!

اليوم قررت المضي قدما لتحقيق ذلك،

كيف سيكون لي ذلك المتجر وأنا حتى لم أحاول أن أدع الناس تتذوقها؟

غدا سأذهب لجميع متاجر الحلويات وأعرض عليهم حلوياتي وهذه ستكون أول خطوه لي. "

بدأ الأمر مشجعا عندما راقت الفكرة لأولادها مأكدين أن الجميع سيحب تلك الحلويات اللذيذة.

دون تردد

بدأت بتعبئة الحلويات بعلب صغيرة شفافة وهي تدندن

تلك الأغنيه التي ألفتها لأولادها:

" إفرحوا إفرحوا داوموا على الفرح،

إضحكوا غنوا وارسموا قوس قزح،

ثابروا قاوموا تشبثوا بالحلم!

أرقصوا بمرح.. "

فجأه تذكرت حلمها التالي أن تصبح مولفة أغاني أطفال ولم لا ستأحاول أيضا تحقيق ذلك الحلم.

وتذكرت أيضا تلك القصة التي أخبرها عنها والدها عن ذلك الصبي الصغير الذي شاهد صندوق والده المليء بجنيهات ذهب، فسأل والده

كيف يستطيع أن يكون لديه الكثير من المال فأخبره والده أن المال يجر المال. تحمس الصبي للفكرة وبدأ يدخر مصروفه حتى أدخر مبلغا اشترى به جنيه ذهب.

فثقب الجنيه الذهب وربطه بخيط وأدلى به من فتحة الصندوق ليسحب الجنيهات الذهب الأخرى، وإذا بالخيط ينقطع ويعلق جنيهه الذهب بالصندوق. يهرول لوالده حزينا غاضبا ويقص عليه ما حدث وأنه كذب عليه في أن المال يجر المال!!

ضحك الأب وقال: " أنا لم أكذب عليك يا بني، المال يجر المال فعلا!

بما أن جنيهاتي الذهب التي بالصندوق أكثر من جنيهك الذهب فهم قاموا بجره لهم! "

همست فعلا المال يجر المال والحلم يجر الحلم.

إبتسمت وشيء من الرضى تسلل لروحها.

واصلت تعبئة حلواها اللذيذة، وعادت تدندن:

" إفرحوا إفرحوا وداوموا على الفرح،

إضحكوا غنوا وارسموا قوس قزح،

ثابروا قاوموا تشبثوا بالحلم!
وارقصوا بمرح... "

***

مقابر الذاكرة

أنظر يا عزيزي إن ما ينتابني الآن شيء مغاير بل مختلف كل الإختلاف عما سبق.

قرع خبط هدم نبش بمطارق الذكريات..

تصور لقد خرج من ذاكرتي جثة أحدهم متحللة يصدر منها تلك الرائحة التي طالما كرهتها

رائحة الخوف!

نعم يا عزيزي للخوف رائحة،

كيف لم أنتبه أن كمية الخوف المتأصلة بي مصدرها ذاكرتي؟؟

يا إلهي لا أصدق رغم تلك الحقبة من الزمن،

ما زالت مدفونه بمقبرة الذكريات..

ذهلت، بل كأن أحدهم رمى بي من علٍ

وإلى الآن ما زلت أهوي!!

هل تصدق .. لم أعد أبالي بتلك المسافة الفاصلة

ما بيني وبين القاع؟؟

فقط أريد أن أستقر.

أعرف أنني أهوي منذ الأزل،

منذ بدء الخليقة،

تخيل تلك المسافة أظن لا بأس بها

ولذلك يمكنني أن أتخيل القاع حتما سيكون مذبذبا كجبل غير مهندم،

وربما سيكون أرضا صلبة،

حتما سأرطتم بها وأنفحر كقنبلة نووية!

لا بأس بذلك جلّ ما يهمني السقوط.

لا أعتقد يا عزيزي أنك تعلم حجم المعاناة،

أن تبقى هكذا معلقا ما بين البينين!

لا أنت متشبث لتعود أدراجك،

ولا أنت واقف لتلتقط أنفاسك!!

أن تبقى تهوي وتهوي،

دونما جدوى شيء متعب حقا.

عليك أن تلهث وتلهث لتفقد جميع حواسك..

لا عليك يا عزيزي لا تأبه لثرثرتي

ما هي سوى محض سخافة

عفوا نسيت أن أسالك كيف حالك اليوم؟؟

يا لسخافتي،

وكأن اليوم يختلف عن البارحة..

كان أحرى أن أسألك كيف حالك البارحة لا اظنه سيختلف أيضا، جميعها متشابهة.

البارحة،

وما قبل البارحة،

أيجدر بي أن أسألك كيف حالك يوم ولدت وكيف سيكون حالك يوم تموت!؟

أكيد لا تعلم لأنك بكلتا الحالتين كنت مجبر..

مجبر أن تولد ومجبر أن تموت!

كما أنت مجبر الآن بحياتك كما هي..

لا تعليق!!

منذ بدء البدء ونحن مجبرون حتى أسمائنا والتي لنا نصيب كبير منها، بل كان أولى أن نختر أسمائنا.

أتخيل حجم المأساة الذي يعاني منها أصحاب الأسماء البائسة!

كأن يكون اسمك " صابر " أو " حسنين " أعتقد هذا الاسم بحد ذاته يجعلني أخمن أن من أكتشف هذا الاسم شخص أحول!

أكثر ما يضحكني تخيل أن يكون اسمي من تلك الأسماء الساذجة مثل " وطفة " أو مقبولة على اسم إحدى جداتي مجرد التخيل يصيبني بالقشعريرة!!

هل تعلم يا عزيزي حتى اختيارهم لأسمائنا هو أنانية صرفة من قبل أجدادنا.

تبا لهم!

يستنسخون أنفسهم وكأنهم يرجون الخلود، توارث أسمائهم وحتى عاداتهم وتقاليدهم لا يجب الحياد عنها،

اللعنه عليهم جميعهم يتوارثونها كمقدسات!

لا تتململ يا عزيزي أو يصيبك الضجر ما زال الحديث بأوله!

لا أكذب عليك أنا أيضا مللت وأصابني ضجر مبهم السبب والمعنى، تلك التفاصيل المثيرة

وأغنيات كوكب الشرق، من كل شي..

هل تصدق يا عزيزي حتى سجائري وفنجان قهوتي أضجروني حد الغثيان!

لا تسرح بتفكيرك بعيدا يا عزيزي،

لم أضجر منك طرفة عين.

كل ما في الأمر،

نبشت مطارق الماضي مقابر ذاكرتي

وأحدثت بعد ذلك ثقبا أسودا كبيرا

مازال يخرج منه الكثير من الجثث المتحللة

بعضها له رائحة اللوم والحسرة...

***

ظل راجل ولا ظل حيطة

تتحكم بنا الأمثال فتتغلب على الأقوال والأفعال، نعيد تكرارها لأبنائنا بعدما حفظناها عن ظهر قلب.

لم تردعها تلك الشتائم، حتى عندما ينتقد أسلوبها بالكلام، وتذمره الدائم من طبخها وأن والدته لم يخلق الله امرأة سواها تتقن فن الطهو والتدبير المنزلي..

كل ذلك لم يحرك مفصل إصبع من أصابعها،

وكأن تبلد وجمود الكرة الأرضية يسكن بها.

بقيت بلا حراك تستقبل دون رغبة دون متعة دون شهقة!

مغمضة عيناها تارة وتارة أخرى تتسمرعيونها بالسقف لا تعلم كيف ترى كل حياتها مرسومة هناك، تتابع الرسومات تلاحقها تفصلها عن الفاعل بحيث تصبح مفعولا به مغصوب!

تغيب عن الحالة عن الرعشة، اللذة، التفاعل، التجاوب، النشوة، عن تلك الهزّة ما قبل البدء وربما ما قبل القبول!

تشرد وبفضول تتابع الرسومات،

تتسارع كشريط فيديو يعرض بسرعة..

تتشبث ببعض الرسومات تحاول التعلق بها تتمزق لترمي بها من جديد تحت وطأة الفاعل، تنتظر باشمئزاز فتجد نفسها مشغوله بأشياء بعيدة لا تقاس بالوقت الزمن أو المسافات ربما تقاس بأبعاد أخرى كاليأس والبؤس.

تحاول لملمة أجزائها، بعضها، وأنفاسها المسحوقة..

تنشغل عن الحدث بحدث أكبر أهمية.

كيف هدّدهم صاحب البيت أنه سيرمي أثاثهم بالشارع إن لم يدفع إيجار البيت المتراكم عليه

عندما قال: " معكم أسبوع لا غير!! "

وبعد غد يجب دفع أقساط مدرسة الأولاد وإلا سيطردون!

وتفكير مثل ماذا سأطهو غدا أو تفكر ربما سيكون الغد مشمسا تستطيع غسل الثياب المكدسة تتذمر تلعن الغسيل وساعته..

وبعد بعد بعد غد لا تعلم ربما بعد قرن أو دهر سيبقى الحال على هذه الحالة..

كلما سألت،

" الله بفرجها الله بدبرها،

أنا رايح على غرفة النوم،

نيمي الأولاد والحقيني!! "

تشعر بثقل جسمه بحركاته تصحو من شرودها..

على شتائمه المعتادة: " وحدة باردة وكأني متزوج خشبة!! "

يرهز يزأر يزمجر يتعرق يلهث ينقلب على ظهره يدير ظهره لها...

لن تصبح على خير إن قالها، لأن كل ما يحيط بها ليس خيرا.

ولن تكون بخير إن صبحها بها،

تنفصل عن نفسها تتبلد حد السخافة والقرف، تنظر ناحيته تسمع شخيره كسمفونية نشاز،

تعود لتشغل تفكيرها بتلك الأشياء الأكثر والأكبر أهمية

كيف ستتحمل ثقل الفاعل والزمن

على كاهل جسدها المصهور بين رحى

معلش واصبري " ؟؟ "

" ظل راجل ولا ظل حيطة "

***

وشم

ما بين الماضي والحاضر مسافة نبض، نعيش من فتات الذكريات
ونخلق ذكريات من الحاضر لتصبح ماض.
لا تؤلمنا الحياة ولا الزمن له يد بما يحصل لنا.
هي المواقف والأحداث نقشت على جلودنا فكانت كالحروف والكلمات
وكنا نحن الصفحات والأسطر،
وثنايا ذواتنا هوامش وحواشي يختبأ فيها عبق الماضي..
لا نستطيع تمزيق أي صفحة أو محو الحروف،
ننزف بصمت وخوف
كلما خطت الحياة مزيدا من الأوجاع.
تهتز فروع الأشجار مصدرة أصوات لتقتل ذلك السكون والهدوء.
مدينة الأموات أطلقت عليها ذلك اللقب، كل شيء فيها
صامت وكئيب..
حياة تخلو من الحياة كل يوم تتساءل كيف تحملت
كل تلك المدة في هذه البلاد!؟

أين أمضيت سنوات عمري، أيعقل أنني كنت في غيبوبة أم أصبت بفقدان الذاكرة؟

" لا اذكر شيئاً "

تكلم نفسها بصمت، لا تخرج الكلمات من حنجرتها دائماً شاردة واجمة شاحبة، ينتابها شعور لا تجد له وصفا دقيقاً..

وتنبثق الكلمات وسيل من لوم أو ندم يخنقها الصمت

ويطبق على أنفاسها، أصابني الجنون؟

تهمس بصوت متدهدج تخرج الحروف بصعوبة

من أعماق حنجرتها الصماء حروف متقطعة

تكلم نفسها بصوت مسموع

ولكن بالكاد ان يفهم، وكأنها اكتسبت لغة جديدة

أو أبجدية مختلفة عما تعلمته، وتحولت تلك اللغة لصرخات وشتائم ولعنات تصبها على نفسها كلما تذكرت كم تبلغ من العمر، وكيف مضت بها السنون

ولم تفعل شيئاً يذكر سوى أنها أم!!

لم تحقق أمنياتها أو حتى لو جزء بسيط منها يصهرها الندم

ويطحنها الوجع بين رحايا التردد.
أعجبتها لغتها الجديدة وأتقنتها. وابل من الكلمات والجمل غير المنتظمة تحدث نفسها كل يوم بصوت عال تجمع ما بين الماضي والحاضر والمستقبل.
كأحجية تحاول أن تجمع أجزائها لتعرف سر ما
تحاول جاهدة أن تتذكر الماضي وكيف كانت ولكن تخونها الذاكرة صور شاحبة
كرواية قرأتها منذ آلاف السنين ونسيت عنوانها
وعلق في ذهنها بعض السطور..
تذكر طفولتها وكيف كانت فتاة مشاغبة وتقفز بها الذاكرة لتلك الأيام
حيث كبرت وأصبحت شابة.
ذلك الحدث لم تنساه أصابها الرعب والخوف، كانت دماء بلون وردي قطرات بسيطة بللت سروالها الداخلي!
إعتقدت أنها بخطر ونسيت أن الطبيعة ستأخذ مجراها، أخبرتها والدتها أنها أصبحت صبية،
لا تعرف لما ساورتها المخاوف والحذر.
وكأي فتاة كانت لها دورتها الشهرية المنتظمة،

ولكن لم تكن كباقي الفتيات!!
كل شهر من تاريخ تلك الدورة تنتابها الآلام والوجع الغير محتمل وتنام طريحة الفراش طوال أسبوع كامل،
تبتسم وهي تذكر
كم كانت تلعن ساعة ولادتها وكم كانت تتمنى لو خلقها الله صبيا أو عصفورة، أي شي سوى أن تكون فتاة، تصاب بالاشمئزاز عندما تدخل لتغير تلك الفوط وكم كانت تغسل يداها مراراً وتشعر بالثلوث طوال تلك الفترة!
تتوالى الصور أمامها فتضحك تارة وأخرى تصمت ليلفها الهدوء من جديد.
تكتب الحياة بحبر مليء بالسموم بقلم مذبذب كالإبرة.

لا تكتب على جلودنا بل توشمنا بتلك الذكريات وتتأصل بتفاصيل أجسادنا فتنمو معنا وتكبر كلما كبرنا...

تعود من جديد وتتمتم بصوت هادئ: " لن أندم على ما مضى،

يجب أن انهض أنا قوية، ويعلو صوتها لتأكد ما تقول،

نعم أنا قوية صلبة أعلم ذلك يجب أن لا أستسلم لليأس

سأبدا من الصفر! "

وتبتسم،

فترتسم ملامح الرضا على وجهها تهمس بصوتها المبحوح:

" الفشل لا يعني انتهاء الفرص،

أنا متاكدة أن الفشل بداية النجاح، لا للمستحيل بقاموس أبجديتي

لا أريد أن أعلم لما حدث ما حدث. "

وتحمست بأفكارها وتذكرت تلك الأمنية البعيدة في أعماق سنوات عمرها

وصاحت دون قصد: " سأحققها ولو بعد حين!! "

وبريق يلمع بعينيها العسليتين وتنهيدة ارتياح خرجت من صدرها لتعلن

أن لا مستحيل في الحياة!

نحن من نصنع ذكرياتنا ونحن من نسمح لأنفسنا بالانهزام..

(لن يستطيع أحد أن يصعد ظهرك وأنت واقف)

(وأن تأتي متأخرا خير من أن لا تأتي أبدًا)

هاتان مقولتاها المفضلتان.

ذهبت إلى غرفة نومها وهي واثقة الخطى مطمئنة كأنها تحاول أن تتصالح مع نفسها،

وتطرد تلك الأطياف وأشباح الماضي من ذاكرتها الشاحبة.

وخلدت إلى النوم وهي تتمتم:

" أنا من سيكتب هذه المره

ولن أدع الزمن يوشمني بإبره المؤلمة !! "

***

الفـهــرس

كلمة الناشر 5

الإهداء 7

إهداء ثان 8

المقدمة 9

كان اسمها فرح 11

أنا و السيجارة 20

سباتٌ أبدي 28

تلبسها جنيّ 43

بقايا حلم برائحة العشق 58

سبب وجيه 73

غربة وخيبة 81

ذات غفران 91

قولوا آمين 98

هدوء بنفسجي 103

مع الأسف 111

موسم الكرز 114

صدفة 120
واقعٌ رمادي 124
حلم وأمنية 142
مقابر الذاكرة 149
ظل راجل ولا ظل حيطة 155
وشم 159
الفهرس 165

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع والنشر محفوظة